ينتصر الحب

مجموعة قصص اجتماعية

أسامة كامل أبو شقرا

تقديم

د. علي منير حرب

أسامة كامل أبو شقرا

وينتصر الحب

(مجموعة قصص اجتماعية)

تقديم

الدكتور علي منير حرب

وينتصر الحب

الطبعة الأولى: 2022
ردمك ISBN 978-1-7387694-0-7
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يمنع طبع هذا الكتاب أو أيّ جزء منه بكل الطرق والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والكومبيوتر وبأي وسيلة أخرى إلا بإذن خطي من المؤلف.

أعمال سابقة للمؤلف

دليل الموضوعات في آيات القرآن الكريم - الطبعة الأولى - بيروت - 2001.

أصول تطبيق قانون الضريبة على القيمة المضافة - الطبعة الأولى - بيروت - 2002. الطبعة الثانية - بيروت 2004.

المسيح (عليه الصلاة والسلام) في القرآن - الطبعة الأولى - بيروت 2004.

وترجم إلى الفرنسية في العام 2013 بعنوان:

Jésus - Christ et la Vierge Marie dans le Coran - 1ère édition - Beyrouth – 2013

الاقتصاد في القرآن - الطبعة الأولى - بيروت - 2007.

أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا - تحقيق - الطبعة الأولى - بيروت - 2011.

حنينُ الحُبِّ – قصص قصيرة - الطبعة الأولى - 2016 - الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان.

عودة إلى أسباب أحداث القرن التاسع عشر في جبل لبنان - 2017 - الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان.

الجهاد في القرآن، لا قتال بعد وفاة النبيّ ﷺ – 2018 - الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان.

أحاديث الرسول ﷺ بين الصحيح والمنحول - 2021 - دار يافا العلمية للنشر والتوزيع – عمان الأردن، ودار الدندشي للطباعة والتوزيع – مونتريال – كندا.

حوار شيخين في الإسلام – 2021 - دار يافا العلمية للنشر والتوزيع – عمان الأردن، ودار الدندشي للطباعة والتوزيع – مونتريال – كندا.

المحتويات

تقديم	7
وينتصرُ الحبّ	13
الحرب تُدمِّر والصّداقة تُعمّر	47
قِطّةٌ أليفة انقلبت نَمِرَةً شرسةً	79
الأمّ البديلة	115
حِكمةُ زوج	137
حين يسقطُ القناعُ	143
إلينا والحب الحرام	149

تقديم

«وينتصر الحب»!...

هي رحلة فنيّة أدبية، حملتني في محطاتها إلى عالم الفرسان النبلاء، وتاريخ المآثر العربية الأصيلة.
وينتصر الحب!...
إنها حكايات انتصار الحب، جولة بعد جولة، في معاركته لصدود الحياة وأقفالها الصدئة.
وكيف لا ينتصر الحب وقد ولد في العقل بعد القلب، ونشأ على صخرة الإيمان؟
ولم لا ينتصر وقد نما وترعرع في أحضان التسامح والثقة والوفاء؟
وهل يمكن ألّا ينتصر وقد نذر نفسه ليقود المواجهة لينصر المبادئ والقيم والأخلاق؟
كان لافتًا ومعبّرًا أن يختار المؤلف الصديق «أبو شقرا»، هذا العنوان ليمنحه لمجموعة حكاياته الاجتماعية الأخلاقية الهادفة، وكأنّه أراد منه أن يكون فاتحة دعوة للقارئ ليصحبه في رحلة ممتعة شائقة، كلّ ما يكتنفها من أحداث وشخصيات، عامر بالمثل والقيم، مفعم بالمحبة والتضحية، مجلّل بالمروءة والشهامة، حتى أثناء العبور في المضائق الصعبة والأنفاق المظلمة والمواقف المآزق التي فيها من الجهل والتخلّف والظلم ما يبعث على الأسى والغضب.
من حقول الكاتب الغنية في مواسم تجاربها وغلّات علاقاتها ووفرة تنقّلاتها في البلاد، استقى وانتقى أبو شقرا

موضوعات قصصه وأحداثها وشخصياتها، ونقل بأمانة الشاهد وبراعة المراقب وصدق الراوي، ما عايشه أو ما عُرض على ميزان حكمه، أو ما سمعه من الثقاة وأهل الرأي والمشورة، لا بهدف الإثارة والتشويق في الحدث والأزمة وتحقيق فنيّة الحكاية فحسب، إنما لغاية الحكمة والهداية والاقتداء بالمُثُل في مختلف العلاقات داخل الأسرة والمجتمع، وبين المحبين والأصدقاء وشركاء العمل.

بلى، لقد انتصر الحب بين يدي «أبو شقرا»، لأنه يؤمن أن هرم الحياة لا يقوم إلا على قواعد العقل والإيمان والقيم الأخلاقية.

انتصر الحب مع «سليمى وحسام»: «عندما تتفجر الرغبة الصادقة في قلبين جمع بينهما حب حقيقي وإيمان راسخ بمبادئ ومثل قويمة، تعضدها إرادة صلبة، تتلاشى الصعوبات وتضمحل المستحيلات، وتتهاوى الحواجز والعقبات، فينتصر الحب، وتعلو كلمة الحق على كل ما يزرعه أصحاب النفوسِ المغرضة في عقول أناس أنقياء الأفئدة وعلى سجيتهم، ذنبهم أنهم وثقوا بمن ظنوهم علماء فقهاء يبغون الخير والصلاح.»

وكما اعترف كبير القوم وأذعن لصوت الحق، شارك الجميع أيضًا «حسامًا وسليمى» في انتصار الخروج من النفق بعد أن «أعطيتنا درسًا لن أنساه ما حييت. فكما كنت على يقين بأن ديننا قد ألّف بين الناس، فقد اقتنعت الآن بأن المذاهب، للأسف، عادت وفرّقتهم، ولكن الحب، الذي لم أكن أومن بوجوده، المدعوم بالإرادة الصادقة القوية الصلبة، رأيته الآن يجمع القلوب متغلِبًا على كل ما قد يعترضه من العقبات والحواجز.»

وتأتي قصة «**وينتصر الحب**»، عنوان المجموعة، ضمن دأب الكاتب على زرع الفضائل التي تنادي بها الأديان ونبذ المذهبية البغيضة التي تفرّق ولا تجمع.
يتجلى فيها فكر الكاتب المحلّق في الإيمان النقي، والمتحلّي بالاعتدال والتسامح والمنطق، كما في المحافظة على القيم والمبادئ الأصيلة، والرافض لكل الأفكار الظلامية المغلقة.
تظهر رسالة الكاتب مبثوثة بجلاء في معظم جوانب القصة وسائر قصص المجموعة، كما تظهر قسمات فكره ومنهاجه واضحة في شخصيات الأبطال ومواقفهم.
وانتصر الحب ثانية مع «شادي وغادة» على يدي «فريد»، صوت «أبو شقرا» وضميره في القصة، الذي حضر كالرسول الهابط من العلى، منقذًا فارسًا عربيًا شريفًا، ليمسك بيد غريق مشرف على الموت، مطحون بالندم المميت بسبب زلة ضعف إنساني ساقته إليها لحظة تخلٍ عاصفة بالحاجة واليأس، على الرغم من إيمانه وصدقه ونزاهته.
وقال «فريد»، الفارس الجواد الأصيل، وقد جمع الشمل وضمّد الجراح وأعاد السكينة إلى النفوس المنهكة: «إن ما تقولينه، سيدة منى، لُغْزٌ حيّر العلماء والفلاسفة منذ فجر التاريخ. وهذا في رأيي، من تدبير قوة خارقة تدبّر شؤون هذا الكون وترسم سبل من وما فيه من مخلوقات حيّة أو غير حيّة. وقد اختُلِفَ في تسميتها، أهي القدر أم الله الخالق، جلَّ وعلا.»
وتتوالى رايات الحب منشورة فوق ساحات الصراع مع «جمانة ومسعود والمحامية سوسن» في «**قطة أليفة انقلبت نمرة شرسة**» حاملة في كل فصل مفاجأة جديدة في مأساة «جمانة» وفي وحشية «مسعود» وفي دناءة «فريد» كما تحمل لوحات ناصعة عن نزاهة القضاء عندما يصرّ

القاضي العادل على التشبّث بأهداب العدالة، وعندما تتولّى القضية محامية بارعة وصادقة مثل «سوسن».
وبعده مع «سامي ودانية» في «**حكمة زوج**»، عندما هزم «سامي» الزوج الأمين الحكيم، شيطان الشكِّ الذي حاول أن يوسوس في الصدور وقال: «أنا إنسان، وكل إنسان معرض للخطأ، وما الكمال إلّا لله تعالى؛ فقد يصدر عنّي، في ساعة غضب، كلام ينمّ عن ومضة شكّ في بعض سلوكك. هذا ومن عادتي، أنّي في كل مرة أسمع فيها نبأ فيه بعض الشرّ، أسترجع دومًا، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.
وكذلك مع «**الأم البديلة**» و«**حين يسقط القناع**».
كل ما في قصص المجموعة من أبطال وأحداث ووقائع وأمكنة وهزّات وتجليات وفضائل، يوجه رسالة نبيلة سامية تنبئ بدوام الخير والمحبة والوفاء، مهما تعاظمت من حولنا عواصف الزمان، لأن الحق هو الأصل ولا يغيب هذا الأصل طالما بقيت شمس الفضيلة مستعدّة أن تخرق الحجب وتشرق في النفوس والعقول.
يطغى على القصص الأسلوب الواقعيّ، حتى في أدقّ التفاصيل، والمحبوكة حبكًا جيدًا في جوانبها الإنسانية والقانونية والاجتماعية.
وبقدر ما فيها من الواقعية السلسة الصادقة البعيدة عن المؤثرات البنيوية للقصة، ترفدها براعة الكاتب في استخدام لغة راقية سليمة نقية، وأسلوب شائق يترك القارئ مشدودًا إلى أحداث القصة حتى نهايتها دونما «تبهير وتذويق»، بقدر ما حفلت به من عبق غامر بالحكمة، والمثل والفضائل والقيم.

تتضمن القصّص إسقاطات تاريخية وسياسية مهمّة عن موضوع الحرب الأهلية التي اجتاحت لبنان وما خلّفته من مآس وويلات، وعن فشل الدولة وتقاعسها في حماية شعبها وأطفالها الأبرياء.
أهنئك، صديقي الكبير، لكل ما تتميّز به من سكينة وأمان وسلام مع نفسك وأفكارك وبصيرتك وتوثّبك المستمر لتوشّح بقلمك صفحات تحيي وتنشر الجمال والمحبة.

د. علي منير حرب

مونتريال - كندا في 2021/11/06

وينْتَصِرَ الحُبُّ

رأتْ عينَا حسامٍ النّورَ، في آخرِ ثلاثينيَّات القرنِ العشرين، في المدينة التي قضتْ ظروفُ عملِ والده أن يستقرَّ فيها، قبل عدّة سنين، بعد أن ترك بلدته سعيًا وراء الرِّزق. كما أنَّ سميرة، والدة حسام، لم تكن أيضًا ابنةَ تلك المدينةِ أو بلدةِ والدِه. ولذا لم يكن لحسامٍ فيها أيٌّ من أبناءِ العُمومةِ أو الخُؤولة. وفي تلك الحِقْبةِ من الزّمن لم تكن وسائل الانتقال على وفرتها كما في أيامنا هذه، أو حتى كما أصبحتْ عليه مع بلوغِ حسامٍ سنَّ الشَّباب، مما جعل لقاءَه بأقاربِ والدَيه قليلًا جدًّا، وإن حصل فيكون في بعضِ الأعيادِ أو العطلِ. وقد كان حسامٌ، كلّما أتى والديه زائرٌ منهم، يشعرُ بحرارةِ عاطفةٍ فيَّاضةٍ من ذلك الزَّائر، فيسأل والديه عمَّن يكونُ هذا الإنسان. ومع مرور الأيامِ فهمَ ماذا تعنيه رابطةُ الدَّمِ بين الأهلِ والأقارب، وصار يستعذبُ لقاء من يأتيهم من هؤلاء ضيفًا، سواء ليوم واحدٍ أم لعدةِ أيَّامٍ، ويزداد متعةً إذا كان برفقته أطفالٌ تقاربُ أعمارُهم سنواتِ عمرِه، فيُمضي وإياهم أحلى الأوقات في اللعب. ولم يكن يشعرُ بأي فرقٍ في العاطفة بين ما يبديه تُجاهه أقاربُ والدِه أو أقاربُ والدته، الكبارُ منهم أو الصِّغار.

أمّا مدارس ذلك الزّمن فكانت، في معظمها وحسب التّقاليد الموروثة، على نوعين واحدٌ مخصّصٌ للذُّكور وآخر للإناث، وبالتّالي كان رفاق حسامٍ جميعهم من الذّكور. كما كانت البرامج الدّراسيّة، في المرحلة الابتدائية، تشمل

التَّعليم الدّينيّ. وفي إحدى ساعات الدّراسة في بداية السنة الثالثة، دخل ناظرُ المدرسةِ إلى غرفةِ صفّهِ وفرزَ من فيها إلى مجموعتين، فاصطحب أفرادَ مجموعته، ثم أدخلهم إلى غرفةٍ أُخرى. وبعد بضع دقائق دخل عليهم شيخُ دينٍ مسلمٌ وراحَ يشرحُ لهم بعضَ تعاليم الدّين الإسلاميّ. وبعد نحو السَّاعةِ أُعِيدوا إلى غرفةِ صفّهم، وانضمُّوا إلى أفرادِ المجموعة الثَّانية. ولمّا أخذَ حسامٌ مكانه على مقعده إلى جانبِ رفيقِه فريدٍ، علم منه أنَّهم أُبقُوا في غرفتهم، وأنّ خوري إحدى كنائس البلدة ألقى عليهم درسًا في الدّين المسيحيّ.

ولما عاد إلى المنزل أخبر والدته مُستفسرًا، فقالت: «لا تعجبْ يا بُنيَّ فهذا أمرٌ طبيعيٌّ لأنّنا، أنا ووالدك، مسلمان فعليك أنتَ وإخوتِكَ أن تتعلّموا أصولَ ديننا، أمّا أترابُك في المجموعة الأُخرى فلأنّ آباءَهم مسيحيّون فعليهم بالتَّالي تعلُّمُ أصولَ الدّينِ المسيحيّ.»

قال: لماذا؟ وما الفرق؟ ولماذا لا يُعلّمُوننا سويّةً تعاليم الدّينين؟

قالت: أنتَ لم تزلْ بعدُ صغيرًا، يا بنيَّ، لتفهم هذا ودعِ الأيّام تُنبِئْك به.

وبعد مُضيِّ نحوِ سنتين، وكان قد جاوزَ العاشرة، جاءَ والدتَه سائلًا ومتعجبًا وقال: سبق لكِ يا أمّاه أن قلتِ لي بأنّنا، أنتِ وأبي وأنا وإخوتي، مسلمون بينما سمعتُ اليوم أحدَ أصدقاءِ والدي يقول لصديقٍ له، بأنّ دينَ والدي يختلفُ عن دينكِ أنتِ، فكيفَ ذلك؟

فأجابته قائلة :لا يا ولدي، فأنا ووالدُكَ على دينٍ واحدٍ ولكنَّ كلًّا منَّا على مذهبِ.

فقال: لم أعدْ أفهمُ شيئًا أهي أُحجية؟ أمْ ماذا؟ وأنا على أيِّ دينٍ أو مذهبٍ يجبُ أن أكون؟

قالت: على دين ومذهب والدِك.

قال: ولماذا؟

قالت: هذه هي القوانين يا ولدي، فالأولاد يتبعون معتقداتِ آبائهم لا أمّهاتهم: ويُمكنك أن تسأل والدك فهو أعلمُ منّي بذلك.

ولما عاد والدُه من عمله، أفرغ حسامٌ أمامه كلّ ما في جعبته من الأسئلة. فقال له والده: الأديان يا بُنيّ، من عند الخالق، أمّا المذاهبُ فمن صُنعِ البشرِ. فما عليك أنت سوى أن تتّبع ما هو من عند الله لأنَّه هو الأساس، ودعِ المذاهبَ لأنّ فيها ما يفرّقُ بين النَّاس، وهذا ممّا لا يَرضَى به الله.

فقال حسام: تقول يا أبتِ إنَّ الأديان من عندِ الله، ولكنْ، لماذا بعثَ الله أديانًا ولم يكتفِ بدينٍ واحدٍ؟ ثم أنّى لي أنْ أفهمَ أو أعرفَ أيَّ دينٍ أفضلَ كي أتَّبِعَه؟

فقال والده: إنّ أسئلتك هذه يا بنيّ تؤكّد لي ما سبقَ وتوسّمْتُه فيك من أنّك، على رُغم صِغر سنِّك، صاحبُ عقلِ شابٍ ناضجٍ. إنّ الله يا ولدي كان كلّما رأى الناس يختلقون مذاهبَ في الدّينِ الواحدِ تُخالفُ، في كثيرٍ من الأحيان، جوهر ذلك الدّين، كان يُرسلُ إليهم دينًا جديدًا في مظهرِه قديمًا في جوهره. أمّا تنوّع المذاهبِ وإحلالُها محلَّ الأديانِ،

كما نراه في بلدنا، فناتجٌ عن نظامٍ سياسيٍّ، أنا على يقينٍ من أنّك ستكتشفُ، بنفسك مستقبلًا، بأنّه نظامٌ فاسدٌ، كما ستتمكّنُ من التَّغلّبِ على كلِّ ما قد يواجِهُك من عقباتٍ أو صِعابٍ بسببِه. ولذا أقولُ لكَ بألّا تدعَ هذا الأمرَ يُشغلُ تفكيرك ما دُمتَ على مقاعدِ الدراسة.

فقال حسام: سأكون يا أبي على ما تُريدُ.

بعد ذلك لم يعد حسامٌ يكترثُ لكلِّ ما له علاقةٌ بالمذاهب، وراح يهتمُّ بالدّراسة كما وعدَ والده.

ومع الأيّام وتطوّرِ وتزايُدِ أنواعِ وأعدادِ وسائلِ الانتقالِ وتوفُّرِها ازدادَتْ لقاءاتُه بأقاربِ والديه سواءٌ في مدينته أم حيثُ يعيشون هم. كما زادَ أيضًا في اجتماعاتِه بأقاربِ والدِه، انتقالُ سكن العائلة إلى العاصمة حيثُ يعيشُ فيها عددٌ لا بأسَ به منهم. أمّا أقاربُ والدتِه فلم يكن منهم من يقيم فيها، فلذا بقي تبادل الزّيارات معهم محدودًا وفي أوقاتٍ متباعدةٍ أو حسبما تسمحُ به أيّامُ الأعيادِ والعطلِ. وكان، مرّة بعد مرّة، يزدادُ متعة في لقاء أترابِه من بين أولئك الأقاربِ .

حوّلت السّنواتُ حسامًا من ذلك الطّفل ثم المراهقِ، إلى شابٍ ناضجٍ ناجحٍ في عمله، يملك سيارةً خاصَّةً حرّرته من قيودِ وسائلِ الانتقال المأجورة، فتعدَّدت زياراته لأقاربِ والدته التي كانت ترافقه في معظمها، ودعواتُها له بالرّضى والتَّوفيقِ لا تفارقُ شفتيها. لِمَ لا وهو الذي يؤمّن لها رؤيةَ ولقاء شقيقاتِها وأشقَّائها وأولادِهم، الّذين تُكنّ لهم جميعًا أعمقَ شعور المحبَّةِ والودِّ. وتبدَّلت أيضًا نظرته تُجاه البنات، فلم تعد تحكمُها براءةُ الأطفال أو شهوةُ المراهقة. وكان في كلِّ زيارةٍ لأقارب والدته يكتشف الحسناواتِ من

بناتِهم، فيستعرضهنَّ في مخيّلته ليبحث عمّن يراها قد تكون شريكةَ حياتِه يومًا ما. فطبيعتُه وأخلاقُه وتمسّكُه بالقيمِ والمُثلِ التي كانت تزيدُه منها هوايةُ مطالعةِ الكُتبِ ذاتِ الموضوعاتِ القيّمة، أمورٌ حمتْه جميعُها من الانحرافِ كبعضٍ ممّن عرفهم أو مِن زملائه على مقاعدِ الدِّراسة.

لفتتْ نظرَه مرّةً سُليمى، ابنةُ إحدى قريباتِ والدتِه، فهي لم تعدْ تلك الطِّفلةُ الّتي تصغرُه ببضعِ سنواتٍ، بل أصبحتْ شابّةً تجمعُ إلى حُسنِ الوجه وجمالِ القدِّ، الدّماثةَ واللطفَ والأدبَ والأنوثةَ والعِلمَ، أي معظمُ الصّفاتِ التي تتحلّى بها تلك الفتاةُ التي كثيرًا ما رسمَ صورتَها في أحلامِه. ويزيدُ في ذلك شُعورُه بمحبّةِ والدتِها له ولوالدتِه، التي كانت بدورها تبادلُها الشّعور نفسَه وتُصرُّ دومًا على لقائها ولو لدقائقَ معدوداتٍ. أمّا هو فكان يرحّبُ بتحقيقِ رغبةِ والدتِه تلك لأنها كانت تتقاطعُ مع رغبتِه هو. في البدءِ لم يكنْ يدري سببَ هذه الرّغبةِ، أو لماذا أيضًا كان يودُّ أنْ يمتدَّ وقتُ كلِّ لقاءٍ لساعاتٍ؟ أهي عذوبَةُ وطرافةُ حديثِ والدةِ سُليمى؟ أم أنّ وراءَ الأكمةِ ما وراءها؟

لم يطُلْ عليه حالُ هذا التساؤلِ، حتّى لاحظَ أن عينيه لا تنقطعان عن إنعَامِ النّظر في تقاسيم وجه سُليمى وجسدِها، بل هما دائمتي المراقبة لكلِّ حركةٍ أو التفاتةٍ تصدُرُ عنها. كما أنّ أذنَه لم تكن تسهو عن سماعِ كلّ كلمةٍ تنطقُ بها. ولكنَّها كانت دومًا تحجبُ نظراتِها عن عينيه، فيسأل نفسَه أهو من قبيلِ عدمِ الاكتراثِ به أمْ أنّه الحياءُ؟ ففي تلك الأيام كانَ الحياءُ لم يزلْ من أحلى وأفضلِ صفاتِ الأنوثةِ. وشيئًا فشيئًا أصبحتْ رغبتُه تزدادُ في زيارةِ سُليمى. ثم راحَ يشعرُ

بشوقٍ دائمٍ لرؤيتِها. فأيقنْ أنَّ قلبَه غارقٌ في حُبِّها. فعليه إذًا التَّحقّقُ من شعورِها هي كي يقوم بالخطوة اللاحقة.

في زيارتِه التّالية، تعمّد أن يكونَ مقعدُه مواجهًا لمقعدِها، لعلّه يتخلّص من ذلك الحاجزِ الذي يحجبُ نظراتِها عنه. فلم يدعْ لعينيه ثانيةً واحدة من دون النَّظر إلى عينيها. فكان له ما أراد حين رأى شُعاعًا يلمعُ كوميضِ البرقِ من نظرةٍ رمقتُه بها من دون أن تتمكّن من منعِ ذلك الشُّعاع من اختراقِ عينيه حتى بصيرته. فأيقن أنَّ سُليمى تبادلُهُ الحبَّ. ويشاءُ القدَرُ أن تنشغلَ والدتاهُما بما دعاهُما إلى الانتقالِ من غرفةِ الجلوسِ إلى المطبخِ، ومن دونِ إبطاءٍ قال لها: لقد قرأتُ في عينيكِ ما أريدُ أن أستوضِحَه، فهل لي أن أكلِّمكِ على انفرادٍ في مكانٍ تحدّدينه خارجَ المنزلِ؟

لم تنطقْ بكلمةٍ واحدةٍ، ولكنّ الاحمرارَ كسَا وجهها، واعترتْها قشعريرةٌ مُمتعةٌ، فخفضَتْ رأسَها وقامتْ وغَادرت المكانَ وتركتْهُ وحيدًا ودخلتْ إلى غرفتها، فأغرقتْه في حيرةٍ من أمره. هل أخطأ بدعوتِها إلى الخروجِ؟ أمْ فارقتْه لأنَّها لا تحبُّهُ؟ ولم ينتشلْه من غرقِه هذا سوى عودةِ والدتيهما للانضمامِ إليه.

مرَّتْ دقائقُ بطيئةُ الثَّواني، قبل أن تخرجَ سُليمى من غرفتها وقد بدّلت الثّوب الّذي كانت ترتديه بآخر زادَها جمالًا في عينيه، وقالت: أستميحكم عذرًا لأنّ عليّ أن أذهبَ إلى صديقتي ليلى كما تواعدنا منذ الأمسِ، كي أُحضِرَ كتابًا كنتُ قد سألتُها شِراءَه، وهي ستسافر غدًا صباحًا، هذا إذا سمحتما لي يا أمّي ويا خالة؟

فهمَ حسامٌ الرّسالة، وقبل أن تقولَ والدتُها كلمتَها، قال: وأنا على استعدادٍ لنقلكِ ذهابًا وإيابًا وبذلك ترتاحين من عناءِ الانتقالِ بوسائلِ النقلِ العام.

أجابت الأمُّ بالموافقة ولم تعترضْ سُليمى، فأحسَّ حسام بأنّ رغبتَه قاربت أنْ تتحقق.

خرج الاثنانِ من المنزل صامتين وركبا السَّيارة، وقبل أن يدير المحرك، التفت إليها قائلًا: شكرًا لكِ.

قالت: علامَ الشُّكر؟

قال: لأنَّكِ فهمتِ سريعًا ما أقصد. ولكن كم يبعد عنَّا منزلُ صديقتِكِ؟

قالت: لماذا تسأل؟ فهل غيّرت رأيك؟

قال: بالتأكيد لا، ولكنّي أرغبُ في معرفةِ كم من الوقتِ سنبقى معًا.

قالت :لا تهتمّ، أتكفيكَ ساعةٌ واحدةٌ للذِّهابِ والعودةِ؟

فأدار محرّك السَّيارة وانطلق بها، ثمَّ قال: نعم هذا كافٍ اليومَ فقط.

قالت: ماذا تعني بقولك: «اليوم فقط»؟

قال: أعرف أنَّك على قدرٍ جيدٍ من الذّكاء، ولكنّك تبقين فتاةً والفتياتُ من طبعهنّ الحياءُ، وهذا من صفاتكِ اللاتي أعجبتُ بهنَّ.

لم تعقّبْ هي على كلامِه، بل كتمتْ سرورها بالإطراء. فأردفَ هو قائلًا: هي بضعُ كلماتٍ، يعبّر بها لساني نيابة عن قلبي، إنّي أحبُّكِ يا سُليمى، فهل تحبينني أنتِ؟

فتنهدت بعمقٍ وقالت: أخيرًا نطقتَها؟ لقد مضى عليّ دهرٌ وأنا أحلم بسماع هذه الكلمة. أجل، وأنا أيضًا أحبّك.

فأمسك بيُمناه يُسراها، فضمّتها باثنتيها. وكم كانتْ ترغبُ في أنْ تضُمّها إلى صدرها لعلّ ضرباتِ قلبِها تُشعِرُه بعمقِ حبّها له، ولكنّ الحياء منعها. ثم قطعَ لسانُه حديثَ أيدِيهما ليقول: أتقبلينني زوجًا لكِ؟

قالت: لستُ أدري أفي حُلُمٍ أنا أمْ هي الحقيقةُ؟ كنتُ أنتظرُ منك كلمةَ: «أحبّكِ»، وإذا بك تفاجئني بتحقيق الحُلم الأكبر، أجلْ أجلْ أقبلُ، ومن دون تفكيرٍ أو تردُّدٍ. فأنا في غاية السَّعادة التي أرجو الله ألّا يحرُمني إيّاها.

قال: فلنتواعدْ إذًا بألّا يفرّقَ بيننا أمرٌ غيرُ الموت، فأنا أعدكِ، فهل تعدينني أنت؟

قالت :أجل أعدك بل ولن أكون لأحدٍ غيرِك، مهما كلَّفني ذلك.

قال: إذًا انتظرينا الأسبوع القادم، والدَيَّ وأنا، حيث سنأتيكم حسبما تقتضيه الأعراف والتقاليد. لكنْ هل تعرف والدتك شيئًا عن ذلك الكتاب «العزيز»؟

قالت: لا.

قال: فلنذهب إلى أقرب مكتبة كي أقدّمَ لكِ كتابًا نختارُه معًا، فيتوفّر لنا بعضُ الوقتِ غيرَ مُقيدَين بمقاعدِ هذ السَّيارة.

قالت: هيَّا بنا، ولكن دعني أرجو الله أن يبارك في هذه السَّيارة التي كانتْ أوّل من علمَ بحبّنا.

وبعدما استنفدا الوقت المحدّد بتبادل أحاديث الحب والأحلام المستقبلية، في أحدِ المقاهي، عادا إلى البيت، حريصَين على ألّا يُعلنَ خبرَ حبِّهما بريقُ العينِ أو إشراقةُ الوجهِ.

أكملَ حسامٌ ووالدتُه جولتَهما على من رغِبت من سائر أقاربِها كما اعتادا، ثم قفلا عائدين إلى مدينتهما. وفي طريق العودة أخبرَها برغبتِه في الزّواج بسُليمى، وبقبولِها هي ذلك، وبوعدِه لها بأن يأتوا في الأسبوع القادمِ لطلبِ يدِها.

فقالت، والسَّعادة تملأُ قلبَها: ما أجملَ هذه المفاجأةِ يا بنيّ، لقد أسعدني جدًّا قرارُك هذا فكم انتظرناه، والدُك وأنا، حتّى اعتقدنا أنّنا سنفارقُ هذه الدُّنيا قبلَ أنْ نرى من اخترتَها لتكونَ شريكةَ حياتِك. فشكرًا لكَ لأنك أفرحتَ قلبي، ولسُليمى الحبيبة التي جعلتَك تفكِّرُ بهجرِ العُزُوبةِ. وبالتَّأكيد سيكونُ والدُك سعيدًا جدًّا بهذا الخبر. وأرجو الله أن يتمِّمَ هذا الزّواجَ ويباركَ فيه.

وفور وصولهما إلى المنزل، أذاعت أمُّ حسامٍ النّبأ السّعيد، وعمّت الفرحةُ أهلَ البيت أجمعين. وكان والدُه أوّلَ المعبّرين عن سعادتِه بدمعةِ فرحٍ سقطتْ من عينه، وبقبلةٍ أبويّةٍ على جبينِ حسامٍ، وبكلماتٍ نابعةٍ من أعماقِ قلبِ أبٍ مُفعمٍ بحبِّ أولادِه، قائلًا: أخيرًا يا حبيبَ القلبِ قرّرت هجر العزوبة، فالشُّكرُ كلُّ الشّكرِ منّي لسُليمَى الّتي سيتحقّقُ حُلمي على يديها في أنْ أراك متزوجًا قبلَ أن أغادرَ هذه الدُّنيا.

مرَّ الأسبوع ببُطْءٍ شديدٍ، وحُسامٌ شاردُ الذّهنِ نهارًا ومُؤَرَّقٌ ليلًا. ووالدَاه مُنهمِكان بالتَّحضير لمُهمّةٍ سيُدخِلُ نجاحُها إلى قلبيهما سعادةً لا تُوصَفُ، ولا يعرِفُها إلّا من ذاقَها من الآباء. هي المرّة الأولى التي يقومان فيها بمثل هذه المُهمّة، فحُسامٌ ابنُهما البكرُ. فماذا يتوجَّبُ عليهما حملُه من الهدايا؟ وهلْ من المناسبِ شراءُ خاتَمي الخِطْبةِ؟ وغيرُها من الأسئلة العديدة التي تداولاها، منها ما وجدا له جوابًا ومنها ما بقي مبهمًا.

وفي نهايةِ الأسبوعِ، توجَّه حُسامٌ ووالدَاه حسبَ الموعدِ إلى حيث تقيمُ حبيبتُه، وبعدَ نحوِ السّاعتين بلغوا مقصدَهم. وكان الوقت قد قاربَ العَصرَ. استقبلهم أهل البيت بكلماتِ الترحيبِ الاعتيادية والأسئلة المُعتادةِ عن الأحوالِ الصّحّيّة ومشقّةِ السّفر. كما سألتْ والدةُ سُليمى عن هِبة وزيادٍ، شقيقي حسام، فأجابتها والدته بأنّ طارئ عملٍ اضطُرَّ زيادًا عدم مرافقتهم فأصرّت هِبة على البقاء إلى جانبه، وتعلمين جيّدًا مدى محبّتها له.

وبعدما انتهَوا من شُرب العصيرِ المقدّمِ لهم لإطفاءِ حرّ ذلك اليوم الصّيفيّ، توجّه والدُ حسامٍ بالكلام إلى والدِ سُليمى قائلًا: إنَّ زيارتنا اليوم، يا صديقي، لمنزلكم العامرِ ليستْ كسابقاتِها. وعلى الرُّغم من روابطِ النّسبِ والصّداقةِ والمحبّةِ التي تربطُ بيننا فيبقى للتقاليدِ والأعرافِ والعاداتِ أحكامُها. فهدفنا الآن طلبُ يدِ كريمتِكم العزيزة سُليمى لابننا حسام الذي تعرفون عنه كلَّ شيء، إنْ من ناحية العملِ أو الأخلاقِ، وكلُّنا أملٌ في ألّا نعودَ من دياركم خالِي الوِفاضِ.

تململَ والدُ سُليمى في مقعدِه، ثم قال: يا صديقي العزيز، إنّنا من دون شكٍّ نعرفُ كلَّ شيء عنْه ولا نرى فيه ما يُعيبه

لا خَلْقًا ولا خُلُقًا، وإلى جانب ما يتحلّى به من الأخلاقِ الحميدةِ فهو أيضًا ناجحٌ في عملِه. وقد أعلمتنا ابنتُنا برغبتِه في الزواج بها. وكما تعلم، فحسب عاداتِنا وتقاليدِنا قُمنا بعرضِ الأمرِ على كِبارِ عائلتِنا، وبعد التّداول والتّشاورِ قرّروا عدمَ الموافقةِ على هذا الزّواج. وإنني أستميحُكم عُذرًا بألّا تُحرجوني بطلبِ الإجابةِ على أيّ سؤالٍ آخر.

فقال والد حسام: هل أفهمُ من كلامِك أنَّ جوابَكم هو الرَّفضُ القاطعُ ومن دونِ إبداءِ السّببِ أو الأسبابِ؟

فأجابَ: أجلْ يا صديقي، وأكرّرُ رجائي بالاعتذار، وأتمنى لابنكم التّوفيق في أن يجد ضالّته في فتاة، أرجو الله أن تكون أفضلَ من سُليمى. وكما يقول المثل: «الزواج قسمة ونصيب».

عندئذٍ انتصبَ والدُ حسامٍ على قدميه وقال لزوجته وابنه: هيَّا بنا لنعدْ أدراجنا، فما سمعناه لا يدلُّ فقط على عدم احترامٍ لما بين عائلتينا، بل أيضًا لأشخاصِنا نحنُ أيضًا. واتّجه الثّلاثةُ إلى البابِ الخارجيّ، فأسرعتْ والدةُ سُليمى خلفهم، يدفعُها احترامُها ومحبّتها لكلّ فردٍ منهم، لترجوَهم المبيتَ عندهم تلك الليلة، مؤكدةً بأنّ منزلَها يبقى دومًا منزلَهم وأنّ أفرادَ عائلتِها أجمعين لا يُكنّون لهم سوى المحبّةِ والاحترامِ، وأنّ ما حصل يجب ألّا يغيّرَ شيئًا في العلاقة بين العائلتين. ولمَّا أصبحوا في الخارجِ، كانت سُليمى قد التحقت بوالدتها، وعلى غفلةٍ من الجميع اقتربت من حسام وهمست في أذُنه قائلة: أنا ما زِلتُ عندَ وعدِي وعهدِي. فأجابها: إذًا سأنتظرُكِ بعد ساعةٍ من الآن في المكتبةِ المعهودةِ.

ولما ابتعدوا قليلًا عن المنزل، قال حسامٌ لوالديه: أرجو منكُما أنْ تسامحاني لأنّني كنتُ المسبّبَ في هذا الموقفِ المحرجِ الذي وضعتكما فيه. وأسألُكُما أن تقبلا رجائي في إرجاءِ عودتِنا إلى الغدِ، والمبيتِ هذه الليلة في أحدِ الفنادقِ لأنّ عليَّ لقاءَ أحدِ عملاءِ شركتنا.

فقال والدُه: لا يا بنيّ، أنتَ لم تُخطِئ ولا ذنبَ لك فيما حصل. وما دُمتَ ترغبُ في تأجيلِ عودتنا إلى الغد فلا مانعَ لديّ، وأعتقد أن والدتَك، أيضًا، لن ترفضَ لك طلبَك هذا.

أوقف حسامٌ السَّيارة أمام أحد الفنادق ثم ترجّل ودخل إلى مكتب الاستقبال، وبعد دقائق عاد مصطحبًا أحد العاملين لنقل أمتعتهم. وبعدما استقرّ والداه في غرفتهما استأذنهما وخرج واعدًا ألّا يطولَ غيابُه عنهما.

ولمّا دخلَ المكتبةَ رأى حبيبتَه تتصفحُ أحدَ الكتب، كي لا تُلفت النّظر، وما أن اقتربَ منها حتى بادرتْه قائلةً، بصوتٍ خافتٍ: أؤكد لك مرةً أخرى بأنّي لن أكونَ لأحدٍ غيرِك فأنتَ وحدَك من أحبُّ وأرغبُ في الزواج به.

فقال: هل لنا أن نخرجَ من هنا إلى أيّ مكانٍ آخر يُمكننا أن نتحدّثَ فيه ببعضِ الحُرّيّة؟

فأجابت: بالتَّأكيد، فهيّا بنا. ولكن اخرجْ أنتَ وانتظرني في السيارة وسألحقُ بك بعد أن أدفعَ ثمنَ هذا الكتاب.

وبعدما انطلق بالسَّيارة باتجاه المقهى الذي اقترحت، وأحسّت سُليمى بالأمان، أخذت بيده وضمَّتها براحتيها، فشعر حسام بدفءٍ لم يعهدْه من قبلُ، تنبعثُ حرارتُه من راحتيها، ينتشر في أحشائه كلِّها، فلم يشأ أن يحرمَ نفسه من

التّمتّع بهذا الشُّعورِ اللذيذ، ولذا لاذَ بالصَّمت. وعلى الرُّغمِ من حاجتِه إلى يده في قيادة السّيارة تعمدَ ألّا يُشعِرَها بذلك. وبقيا على هذه الحال إلى أن وصلا إلى المقهى المقصودِ. ولمّا أخذ كلٌّ منهما مقعده إلى طاولة بعيدة عن أسماع الفضوليين، بادرها بالسُّؤال قائلا: هل لكِ أن تُنبئِيني بسببِ ما حصلَ هذا اليوم؟

قالت: بعدما غادرتُمانا، أنتَ ووالدتُك، الأسبوع الفائت، وأصبحنا وحيدتين، أنا ووالدتي، أخبرتُها بما اتفقنا عليه. فشعرتُ بِأنها كادتْ تطيرُ من الفرح. فضَمّتني إلى صدرِها، وعرّفتني، للمرةِ الأولى، بمنزلتِك عندها وبما تكنّه لك من المحبّةِ والاحترامِ، ورحّبتْ كثيرًا بفكرة زواجِنا، وقالتْ لي حرفيًّا: أعتقدُ جازمةً، يا بُنيّتي، بأنّكِ لن تجِدي يومًا أفضلَ من حسامٍ شريكًا لكِ في هذه الحياةِ. وبُحكمِ العلاقةِ الوثيقةِ وأواصِرِ القُربى التي تربطنِي بوالدتِه كما تعلمين فقد كنتُ دومًا على اطّلاعٍ على مسيرةِ حياتِه ومعرفةٍ بجميعِ مراحِلِها منذُ ولادتِه. وفي كلِّ مرةٍ كنتُ أراهُ فيها كانتْ تتملَّكُني أمنيةٌ في أنْ يكونَ لكِ. وسأخبرُ والدَك بالأمرِ، وأعتقدُ أنَّ رأيَه لنْ يكونَ مخالفًا لرأيِي.

ثم **تابعتْ** قائلةً: ولمَّا عادَ والدي مساءً ثمَّ انفردا في غرفتِهما أخبرَتْه عن رغبتِك وعن زيارتِكم لنا هذا اليوم. ولكنّه لم يُعلمها بقرارِ كبارِ العائلةِ، المشؤومِ، سوى بالأمسِ مساءً فقط. ولم يكنْ لديّ الوقتُ الكافي لأخبرِكَ بهِ بدوري هاتفيًا لأنَّ والدتِي لم تبلّغني به سوى اليوم صباحًا، ولا تنسَ عُسرَ الاتصالاتِ الهاتفيّة، فاعذرني.

قال: لا بأسَ عليكِ، ولكنْ ألمْ يُفصحْ لها عن سببِ رفضِ هؤلاءِ الكبارِ لزواجِنا؟ ثم من الذي سيتزوج، هم أمْ أنتِ؟

وما شأنُهم هم في زواجِكِ وحياتِكِ؟ ألا يخصُّكِ أنتِ وحدَكِ هذا الأمرُ؟

قالت: إن المنطِقَ الذي تتكلمُ به والسَائدَ في عائلتِكم يختلفُ كثيرًا عنهُ في عائلتِنا وعاداتِنا. ثم إنّ والدتِي قد أخبرتْني أنّه أمامَ إلحاحِها وإصرارِها على معرفةِ سببِ قرارِهم هذا، أفصحَ لها بأنّه عائدٌ لاختلافِ مذهبينا.

فكادَ هذا الكلامُ المُفاجِئ يصْعَقُه. فهلْ من المعقولِ أنْ يكونَ هذا هو السَّببُ الحقيقيُّ؟ وعادت به الذَّاكرة إلى كلامِ والدِه عن أنَّ المذاهبَ اختلقَها البشرُ، وأنَّ فيها الكثيرَ ممّا يزرعُ الفُرقةَ بين أبناءِ الدّينِ الواحدِ. وظنَّ أنَّه أخطأ السّمعَ فسألَها أنْ تُعيدَ ما قالتْه. وبعدما أكّدتْ له بأنَّ هذا هو السّببُ الوحيدُ، قال: لقد تزوجَ والدَايَ منذ ما يزيد عن ثلاثةِ عقودٍ، وهما، كما تعلمين، على مذهبين مختلفين ولم يعترض على زواجِهما أيٌّ من أقاربِهما، فإنّي لأعجب كلَّ العجب ممّا أسمعه، فهل نحن حقًّا في النصف الثاني من القرنِ العشرين، أمْ هي عودةٌ إلى العُصورِ الوُسطى؟ ألا تكفينا التفرقةُ الطائفيّة كي ننتقلَ إلى المذهبيّة؟ والكلُّ يعبدُ إلهًا واحدًا!؟

قالت: لا تعجبْ يا حبيبي، فما لا تعرفه عن والدي وكبار عائلته، نساءً ورجالًا، فعلى الرُّغمِ من أنّهم يعيشون في المدينةِ منذُ الولادةِ، فما زالوا متمسّكينَ ببعضِ العاداتِ القبليّةِ التي ورِثُوها عنْ أجدادِهمْ ما يُشعرك وكأنّ الزّمنَ قد توقّفَ عندهم منذُ مائةِ سنةٍ أو أكثر.

قال: وأنتِ ماذا ترَين؟

فأجابت على الفورِ: إذا كنتَ أنتَ لم تزلْ على رغبتِك وحبِّكَ لي فتأكَّد بأنَّ حبّي لك هو فوقَ ما تتخيّل. وأكرّرُ

وأُعيدُ، بأنّني إذا لم أكنْ لك فلنْ أكون لأحدٍ غيرِك، مهما كلَّفني الأمرُ، حتّى لو بقيتُ العمرَ كلَّهُ من دونِ زواجٍ.

فقال: وأنا بدوري أعدُكِ بأنَّني سأعملُ المستحيل لتكوني شريكةَ حياتي ولنْ أدعَ أيًّا من الصِّعابِ أو العقباتِ أن يَحول دون ذلك. فأنا أيضًا أحبُّكِ حبًّا لم تقرأي عن مثيلِه في أيٍّ من القَصصِ أو الرِّواياتِ.

قالت: لِمَ لا نضعُهم أمام الأمرِ الواقعِ ونتزوّج؟ وأنا على استعدادٍ لتركِ منزلِ والدَيَّ فورًا إذا أعجبَك اقتراحي هذا. فنحن راشدَين ولنا كلُّ الحقِّ في تقريرِ شؤونِنا بنفسينا.

فقال: لا يا حبيبتي لا أرضى لكِ بذلك أبدًا. بلْ أعدُكِ بأنّكِ سترتدينَ الثّوبَ الأبيضَ، الذي تحلُمُ به كلُّ فتاةٍ، وسأتسلّمُ يدَك من يدِ والدِكِ في احتفالٍ بهيجٍ وعلى أنغامِ أجملِ الأغاني والألحانِ الموسيقيةِ. وثِقِي أيضًا بأنّ كبارَ عائلتِك سيُرْغَمون على التّراجُعِ عن قرارِهم برفضِ زواجِنا. ولكن لا تسأليني كيفَ أو متى سيكونُ هذا. وقد أصبحَ أمامي الآن هدفان عليَّ انْ أحقّقَهما، أولُهما زواجُنا، والثّاني أولى الخطواتِ لتنفيذِ وعدٍ قطعتُه على نفْسي، بعدما نمَتْ فيها بذرةٌ زرعَها فيها والدي وأنا في سنِّ الحداثَةِ، في كشفِ مساوئ إحلالِ المذاهبِ محلَّ الدّينِ.

لم تكدْ تسمعُ هذا الكلام حتى أيقنتْ أنَّ من أحبَّتْه وتتمنّاه شريكَ حياتِها رجلٌ رجل. فاغرَورقتْ عيناها بدموعِ الفرحِ واعترَتْها غصَّةُ سرورٍ أعاقتها عن الكلامِ، وأسكرتْها نشوةُ حبٍّ لم تذُقْها من قبلُ مترافقةً بقُشَعْرِيرةٍ لذيذةٍ عذبةٍ، وأحسّتْ بأنَّها تُحلِّقُ في أعالي السَّماءِ. ولمّا عادتْ إلى الأرضِ واستعادَتْ قدرتَها على النُّطق، قالتْ بلسانٍ يشوبُه في البدءِ

بعضُ التَّلعْثُمِ: بعدَ قولِك هذا، يا حبيبي، تحققّت جيّدًا من أنَّ حبّكَ حقًّا لم يصِفْه خيالُ أشهرِ كتّابِ رواياتِ وقَصصِ الحُبِّ، وثِقْ بأنّني على استعدادٍ لتنفيذِ ما تطلبُ منّي في سبيلِ تحقيقِ حُلمِنا، وستجدُني بانتظارِ قرارِك.

ثم غاصا في بحارِ ذكرياتِ الحبِّ الَّذي عاشَاهُ طويلًا صامتًا منذ وُلِد من نظراتِ فتاة في عُمرِ المراهقةِ وشابٍ سبقَ أترابَه نُضجًا، ثم راحَ ينمو ويكبُرُ كلّما تكاملتْ أنوثتُها وازدادَ نُضجُه، حتَّى تلك اللحظةِ السَّعيدةِ حين باحَ لها به وبرغبتِه في الزواجِ بها.

ولكنّ الأوقات السَّعيدةَ تسيرُ بسرعةٍ، فقد حانتْ ساعةُ عودتِها إلى المنزلِ والتحاقِه هو بوالديه في الفندقِ. وقبل أن يفترقا تواعدا على اللقاء في نهاية الأسبوعِ المقبلِ.

***

وتوالت اللقاءات، فكانَ حسامٌ يأتي بصُحبةِ والدتِه في نهايةِ الأسبوع. ولكنَّها لم تعدْ تفكّرُ في زيارةِ والدةِ سُليمى بل صارت في كلِّ مرَّةٍ تمكثُ عند إحدى شقيقاتِها، بينما يذهب هو مدّعيًا زيارةَ أحدِ عملاءِ الشَّركة التي يعمل فيها. ولكنّ ذلك العميلَ لم يكنْ سوى حبيبةِ القلبِ، يُمضي وإيّاها الساعاتِ إمّا في التَّنزه بالسَّيارة أو في أحدِ مقاهي أو مطاعِمِ ضواحي المدينةِ بعيدًا عن أعيُنِ العُذّال.

وفي أحد اللقاءات **قالت** له سُليمى: عندي سؤالٌ أرجو أن تُجيبني عليه بكلِّ صراحة وصدقٍ.

قال: وما هو؟

قالت: هل لك أن تُخبرني متى شعرتَ بحبّك لي؟

قال: لا أستطيعُ تحديدَ ذلك اليوم. فرابطةُ القُربى بين والدتينا ثم الصّداقةُ بين والدَينا، والزّياراتُ التي كانت عائلتانا تتبادلانِها منذُ طفولتنا، أمورٌ جعلتْنا كأننا كنَّا نعيشُ ونكبُر معًا. ولكنّ تلك السنوات التي تفرّق بين عُمرينا لم تكنْ تسمحُ لي في البدءِ أنْ أرى فيكِ سوى تلك الطفلة التي كنت ألاعبها. أمّا بعدما بدأ جسدُك ينمو ومعالمُ الأنوثةِ تظهرُ عليه بدأتْ تتغيرُ نظرتي إليكِ. ثم رحتُ بعد ذلكَ ألحظُ فيكِ، إلى جانب الحُسنِ والجمالِ، ذلك النُّضجَ ورجاحةَ العقلِ اللذين كانا يزدادان في كل مرّة أراكِ فيها. فأصبحتُ أستعذبُ رؤيتَك. وهذا ما جعلني أستغلُّ محبَّة والدتي لوالدتِك فأعرضُ عليها تكرارَ المجيء إلى مدينتكم لزيارتِكم وزيارةِ سائرِ أهلِها وأقاربِها. فكان حبُّكِ يتسلل إلى قلبي من دون استئذان.

قالت: ولكنك لم تكنْ تتركُ لي ما يُشعرني ولو بإشارةٍ أو علامةٍ رمزيَّةٍ واحدةٍ!

قال: صدقتِ، وهذا يعودُ إلى مبدأٍ، لستُ أدري كيفَ أو متى آليتُ على نفسي أن ألتزمَ به. إذْ كنتُ أنظر إلى كل فتاةٍ بعينِ من يبحثُ عن شريكةِ حياتِه، وبالتَّالي عليه ألا يبوحَ لها بما يضمُره إلّا إذا رأى فيها ضالّتَه المنشودةَ. وهذا ما حصلَ في علاقتي معكِ. وتذكرين جيّدًا أنَّني فورَ بوحي لك بحبّي سألْتُك إذا ما كنتِ تقبلين بي زوجًا، أليس كذلك؟

قالت: أجل. وتلك كانتْ أجملَ وأعذبَ مفاجأةٍ لي حتّى يومِنا هذا.

قال: وماذا عنكِ أنتِ؟ أعني متى شعرتِ بحبّكِ لي؟

قالت: لما بلغتُ مرحلةَ المُراهقةِ، كنتَ أنتَ أوّلَ شابٍّ يلفتُ نظري برجولتِه ووسامتِه، وبما تختلفُ به عن سائرِ شبابِ أقربائنا، بالإضافة إلى ما كنتُ أسمعُه عنك من الأوصافِ الحميدةِ، سواءٌ من والدتي أمْ من سائرِ الأقاربِ. ورحتُ، كسائرِ المراهقاتِ، أحلمُ بكَ آتيًا لتحملني على ظهرِ حصانٍ أبيضَ. وقد يكونُ شعوري بعدمِ اهتمامِك بي قدْ زادني انجذابًا إليك. وبعد المراهقةِ، وعندما كنت تصافحُني في كلِّ مرَّة تأتينا فيها، كنتُ أشعر بتيارٍ يسري في عروقي حتَّى هذا القلبِ الذي أوقعني في شِباكِ حبِّك. وكم تمنيتُ أن تضُمَّني إلى صدركَ أو أن تقبّلني كما كانتْ تفعلُ والدتُك. وكنتُ أتمنّى أيضًا أن تطولَ مدّةُ زيارتِكما لا لساعاتٍ فقط، بل لأيّامٍ عديدةٍ. وكنتُ دومًا استرقُ النظرَ إليكَ من دونِ أنْ أتركَ لكَ أنْ تلحظَه...

فقاطعها قائلًا: إلى أنْ «ضبطْتُك بالجرمِ المشهود» في ذلك اليومِ الّذي أعتبرُه أجملَ أيَّام حياتي. ولكن لماذا؟

قالت: أنسيتَ الحياءَ الذي رضَعْنا تقديسَه مع الحليبِ؟

قال: وهذا أيضًا من الصِّفاتِ التي جعلتْ سهامَ حبِّكِ تخترقُ قلبي وحواسّي جميعَها.

***

واستمرّا بضعةَ أسابيع على هذا المنوال، يتبادلان أحاديثَ الحُبِّ ويبحثان عن الوسيلة التي تحقّقُ لهما غايتهما في الزّواج. ولكنْ بعدَ كلِّ لقاءٍ كانت سُليمى تعيشُ أيامًا بطيئةَ الساعاتِ باشتياقٍ لرؤيةِ حبيبِها في عطلةِ نهاية الأسبوعِ التالي. وكان السُّهادُ رفيقَها الوحيدَ في معظمِ أجزاء تلك الليالي، وكانت الهواجسُ على مصيرِ حبِّها تُشغلُ بالَها. هل

سيتحققُ حلمُ حياتها؟ وإلّا فماذا عساها تفعل إذا أصرَّ والدُها ومعه كبار عائلتِه على رفضِ زواجِها؟ وكيفَ ستتمكَّنُ من أن ترفضَ الزواجَ بغيرِ حبيبها إذا حاولوا إرغامَها على ذلك؟ وأينَ أصبحَ الحلُّ الّذي وعدَها به حسامٌ؟ هل تباحثه فيه إبّان لقائهما القادم؟ ولكن، حينما كانت تلقاهُ ثانيةً، كانت تُنسيها تلكَ المعاناةِ، لمسةٌ من يدِه أو ابتسامةٌ من شفتيه أو كلماتٌ كقوله: «لقد اشتقتُ لك كثيرًا يا حبيبتي».

أما هو فكان دائمَ التخبُّطِ في لُجَجٍ بحرين: الخوفُ على حبيبتِه من أفكارِ كبارِ عائلتِها الذين ما زالوا يعيشون في العصور الوسطى، والبحثُ عن أفضلِ السُّبلِ للوصول إلى غايتَيه، اللتين تعهّدَ بهما أمامَ حبيبتِه، مهما كلّفه الأمر.

ودامَ حالُهما هكذا، إلى أن قالَ لها يومًا: لقد حانَ وقتُ الحسمِ يا حبيبتي لبلوغِ هدفنا في الزّواج. فماذا تقولين؟

قالت: أنا لم أزلْ على كلِّ ما عاهدتُك عليه.

قال: ومهما كانت التّضحياتُ عظيمةً؟

قالت: أجلْ، ومهما كبُرت أو عظُمت، فسموُّ هدفِنا يبقى الأهمَّ.

***

بعد لقائهما هذا، عادت سُليمى إلى منزلِها، والحُزنُ والأسى باديان على مُحيّاها. فسألتها والدتُها عن السبب، فأجابت قائلةً: اعذريني يا أمّي، وكوني لي عونًا وملجأً كما عودتني، فلقد ضِعتُ يا أمَّاه.

قالت: بالله عليكِ، يا بنيتي، أوضحي ماذا في الأمر؟ وثِقِي بأنَّني لن أتخلّى عنكِ وسأكونُ دومًا بجانبك ما دمتُ على قيد الحياة، ومهما حصل، فأنتِ ابنتي الوحيدة وإنّي على استعدادٍ لأن أفديَكِ بجسدي وروحي إذا لزم الأمر.

فقالت سُليمى بصوتٍ خافتٍ مخنوقٍ: لقد اغُتصبتُ يا أمّي.

كادَ هذا الخبرُ أن يقضي على والدتها، فارتمت على أقربِ كرسِيٍّ، وامتقعَ لونُها وانعقدَ لسانُها ولم تعدْ تقوى على الحركةِ أو الكلامِ. فهُرعت سُليمى إلى المطبخِ وأحضرت لها كوبًا من الماء الباردِ الممزوجِ بماءِ الزّهرِ، وراحت تساعدُها في الشربِ جُرعةً بعد أُخرى. ولمّا استعادت الأمُّ قُواها أخذت بيدِ ابنتها، وببعض العُنف، وأدخلتها إلى غرفتها. وبعدما وجّهت لها بعضًا من كلامِ اللّوم القاسي الممزوج بالحنان، قالت: أريدُ معرفة تفاصيل ما جرى فورًا وقبل عودة أبيكِ. كيف حصلَ ذلك؟ ومن هو ذلك الوغد؟

فقالت سُليمى: أرجوكِ وأتوسّل إليكِ وأستحلفُك بالله، ألّا تتخلَّيْ عني في ظرفيَ العَصيبِ هذا. وتأكّدي بأنّ ما حصل لم يكن، فقط، خارجًا عن إرادتي، بل قد كنتُ مخدّرةً وفاقدةَ الوعي.

قالت الأم: لم أفهم شيئًا، أفصحي، كيف ومن خدّركِ؟

قالت الابنة، بلهجة التَّهكم: إنَّه ذلك الشّابُ النّاضجُ الذي تحترمينَه وتحبّينَه وتمنَّيتِ كثيرًا أن يكون زوجي، إنَّه ... إنَّه ...إنَّه حسامٌ يا أمَّاه...

ثم أخفت وجهها بكفيها وانطرحت على السّريرِ على وجهِها باكيةً.

فقالت الأمُّ: لا ...لا ...لا أصدّقُ، حسام!؟ لا أصدّقُ. أيُعقل أن يفعلَ هذا!؟ أمتأكدةٌ أنتِ مما تدّعين؟

قالت: أنا لا أدّعي يا أمّاه، إنما هي الحقيقةُ. لقد استغلَّ حبّي له. فبعدما جاءنا مع والديه لطلب يدي وأبلغهم والدي رفضَ زواجِنا، صِرنا نلتقي كلّما أتى إلى مدينتنا، لنبحثَ عن حلٍّ لمُشكلتنا، حبيبان غايتُهما الزَّواج ولكنّ والدي يرفضُه. واليوم كان لنا لقاءٌ على الغداء في مطعمِ أحدِ الفنادق، وكلُّ ما أذكرُه أنَّنا بدأنا بتناول الطّعام، وإذا بي أجد نفسي شبهَ عاريةٍ معه في إحدى غرف الفندق. ولما سألته عمّا حصلَ، أجابني بلهجةِ الآمرِ السّاخرِ قائلًا: اذهبي واسألي والدَكِ وكبارَ عائلته إذا كانَ باستطاعتهم أن يجدوا لكِ زوجًا بعد اليوم.

ثم أخرجني من الفندق وقفلَ عائدًا إلى بلدِه.

وبعدما صمتت الأمُّ طويلًا، وغرِقت في بحرٍ من التفكير لعلّها تجدُ قاربَ النّجاةِ من هذه المُصيبةِ، قالت لابنتها. قفي فورًا واستبدلي هذه الثيابِ الوسخةِ لتذهبي في زيارةٍ إلى شقيقتي في بلدتها، وابقَيْ عندها إلى أنْ أبعثَ في طلبِك. ولكن إيّاكِ أن يعلمَ أحدٌ ولو تلميحًا بهذا الأمر، وسأتولى بنفسي معالجتَه.

وضَّبتْ سُليمى على عجلٍ بعضًا من ثيابِها في حقيبةٍ صغيرةٍ وودّعت أمّها بقبلة ملؤها المحبّة والرّجاء والشُّكر. ولم تنسَ الأمُّ أن تزودها بما يكفيها من النقود لأجرةِ السَّيارة ولشراء ما قد تحتاج إليه من الضّروريات.

في المساء، عادَ الوالدُ من عمله. وبعد العشاءِ وأخذِ قِسطٍ من الرَّاحةِ، أخبرتْه زوجُه بما حصل لابنتها، ولكن بذكائها وأسلوبِها الخاص الذي يمكِّنُها من عدمِ إثارةِ غضبِه، والحصولِ على ما تريدُه منه من دون عناء. فهي تعيشُ معهُ منذُ ما يزيدُ عن رُبعِ القرنِ وتعرفُ بالتَّالي كيفَ تجعلُه يقبلُ ما تريدُ وكأنَّه هو صاحبُ القرارِ. وعلى الرُّغم من أنَّها لم تتمكَّنْ من إقناعِه بقبولِ طلبِ حسامٍ الزواجَ بسُليمى، فقد تمكّنتْ الآن من انتزاعِ موافقتِه على أن تتولَّى هي معالجةَ هذا الأمرِ، ووعدِه لها بقبولِ أيِّ حلٍّ قد تتوصّلُ إليه.

في صَباح اليوم التالي، ذهبت الأمُّ إلى موقفِ سياراتِ الأجرةِ التي تذهبُ إلى العاصِمةِ. ولم يلزمْها أكثرُ ممّا يقارب السّاعتين كيْ تبلغَ منزلَ والدَي حسام. فاستقبلتْها والدتُه، من دونِ أنْ تُظهرَ تعجُّبَها من هذه الزِّيارةِ المفاجئةِ وغيرِ المنتظرةِ، وقد كانت وحيدةً في المنزلِ، فزوجُها ذهبَ منذُ الأمسِ إلى بلدتِه في الجبلِ ولن يعودَ إلّا بعد غدٍ، وحسامٌ وشقيقُه، زيادٌ، كلٌّ في عملِه، وشقيقتُه، هِبة ذهبت إلى السُّوق مع إحدى رفيقاتها.

لم تنتظر الضّيفةُ طويلًا لتخبرَ قريبتَها بفعلةِ ابنِها حسامٍ، فتلقّت الأمُّ الخبرَ المُفاجِئ باستغرابٍ تامٍّ، فما عهدتْه بابنها أنَّه ليسَ واحدًا من أولئك الشّباب المستهترين الّذين يستغلّون عواطفَ الفتيات. وحاولت نفَي التّهمةِ عن ابنها. ولكنّ قولَ الأمِّ بأنَّ البنتَ لا تُلطِّخُ سمعتها بادّعاءٍ كاذبٍ أو باتّهامِ شابٍّ بريء فتفضحَ نفسَها بنفسِها، بالإضافة إلى التفاصيل التي أخبرتها بها أمُّ سُليمى، وعهدِها بصدقِها الذي اختبرتْه على مدى سنواتٍ عديدةٍ، كلُّها أمورٌ أسكتتْ أمَّ حسامٍ،

فراحتْ تُهدِّئ من روعِ ضيفتِها قائلةً: فلننّتظرْ قدومَ حسامٍ لنعرفَ منه حقيقةَ الأمرِ، فما تعودنا منه إلّا الصّدق. وثقي بأنَّني، إنْ صَحَّ ما تقُولينَ، فسأكونُ حتمًا إلى جانبك، فأنا لا أقبل الإساءة إلى سُليمى، وأنتِ أيضًا قريبتي التي أحبُّها حبِّي لشقيقاتي، وأعرفُ جيّدًا أن رفضَ طلبَ حسامٍ الزواجَ بابنتك لم يكن بيدك أن تنقضيه.

فعقّبت امُّ سُليمى قائلة: إنَّها الحقيقة يا أختي فقد كنتُ دومًا أتمنى زواجَ حسامٍ بسُليمى من شدَّة محبتي واحترامي له.

لم يتأخر حسامٌ عن موعدِه المعتادِ في العودة من العملِ. ولدى رؤيتِه والدةَ سُليمى أدركَ أنَّها حضرت للبحث في الحلِّ المناسب لقضية ابنتها.

ومن دون أن تردَّ تحيّتَه، قالت له: لم يكن يخطر ببالي ولو للحظةٍ واحدةٍ أنّ من المُمكن أن تفعلَ أنتَ ما فعلتَ مع ابنتي .أهذا هو حسامٌ الذي عرفتُه في جميعِ مراحلِ حياتِه، بلْ منذُ الولادة وحتى أصبحتَ شابًّا ناضجًا ناجحًا في عمله صادقًا في تعامُله، والذي لم يُذكَرْ عنه أنّه فعلَ عيبًا ما؟ ثم تأتي بهذه الفعلة المَشينة ومع منْ؟ مع ابنتي، أنا التي أحببتُك كما لو كنتَ ابني؟؟ لم أكن يومًا أعهدُ فيك الغدر، فوا أسفاه!

لم يدافعِ حسامٌ عن نفسِه، بل اتّخذ موقف الهجومِ فقال: لو كنتِ حقًّا كما تقولين لواجهتِ، لا زوجك فقط، بل كبارَ عائلته أيضًا عندما رفضوا زواجنا ومن دون أن يسألوا صاحبةَ الشَّأن. ثمَّ كم من مرّةٍ سمعتُكِ تُفصحين عن احترامك لوالدي، ذلك الرّجل الذي كنتِ تُضفي عليه دومًا أفضل الصّفات؟ وأين أيضًا محبّتُك واحترامُكِ لوالدتي التي

تقولين بأنَّها أقربُ إليكِ من شقيقتك؟ أبهذه البساطةِ تقبلين أن يُعامَلا بقلّةِ احترامٍ وبازدراءٍ أمامَك وفي منزلِكِ؟ فيومَ ذهبنا لطلبِ يد ابنتك لم يخطرْ ببالِ أيٍّ منّا بأن طلبنا قد يُرفضُ وبتلك الطّريقة غير اللّائقة.

لم تجِبْ على أيٍّ من تساؤلاته، بل قالت: دعنا الآن من الماضي، فنحنُ اليوم أمام مشكلةٍ بحاجةٍ إلى حلٍّ سريعٍ.

قال: وهل لديكِ الحلّ؟ أو ما هو حسبَ رأيكِ؟

قالت: عليكَ إصلاحُ خطئك.

قال: وعن أيِّ خطأٍ تتكلمين؟

قالت: عن فعلتكَ الشّنيعةِ وغدرك باستغلالِ حُبِّ سُليمى لك للاعتداء عليها. فعليك أن تتزوجها وفورًا.

قال: إذا كنتم على استعداد للقبول بشروطي فسألبّي طلبَك.

قالت: وما هي شروطُكَ؟

قال:

أولًا: ألّا يعلم والدي بأيٍّ من تفاصيل ما جئتِ به.

ثانيًا: تأتون لزيارتنا حسب الأصول والتقاليد وتبلغوننا بقبول طلبي الزواج بابنتكِ، فنعتبر ذلك بمثابة إصلاحِ خطأ معاملةِ زوجِك الكريمِ لنا في ذلك اليوم. ولا نصرُّ على الاعتذار العلني لأن التَّسامحَ من شيمنا.

ثالثًا: أن يتمَّ إجراءُ عقد الزّواجِ بحضورِ كبارِ عائلتِكم وبشهادةِ اثنينِ أو واحدٍ منهم على الأقلّ، وأن توقّعَ سُليمى العقد بنفسها ومن دون أيّ وكيلٍ عنها.

رابعًا: أن يليَ ذلك حفلُ زفافٍ مناسبٍ في أحدِ فنادقِ مدينتِكم، أتسلّمُ فيه يدَها من يدِ والدِها، وأن ترتدي الثوب الأبيض كما تحلُم به كلُّ الفتيات. وأنا على استعدادٍ لتحمل كلفة الاحتفال وثمن الثوب.

فقالت: لا أرى في شروطِك ما هو تعجيزيٌّ، ولكن عليَّ العودة إلى زوجي لأخذِ موافقته.

قال: هذا حقٌّ. وإذا شئتِ أن تكلِّميه الآن، فسأطلب من عاملةِ الهاتف أن توصلنا به.

قالت: فليكن، و«خيرُ البرّ عاجلُه».

لم تكن تقنية الاتصالات الهاتفيّة بعدُ على ما هي عليه في أيامنا هذه، فالاتّصال في المدينة الواحدة كان يتمّ آليًا، أمّا بين مدينتين فكان لم يزل يحتاج إلى تدخّلِ أحد عُمّالِ الهاتفِ، وإلى وقتٍ قد يطولُ أحيانًا إلى نحو السّاعةِ. ولكن هذه المرّة لم يطُل انتظارهم كثيرًا، فبعد نحو ربع السَّاعة كانت أمُّ سُليمى تحادثُ زوجَها. فأبلغته بتفاصيل شروط حسام. وقبل أن تسمعَ ردّه أتبعت كلامها بقولها: وسأبقى هنا أنتظرُ جوابك النهائيّ، آملةً أن يكون في أقربِ وقتٍ بل في ما تبقّى من هذا النهار. وإذا لم يكن إيجابيًّا فثِقْ بأنكَ لن ترى أيًّا منّا ثانية، سواءٌ أنا أم ابنتك. وأنهت المكالمة.

فقالت أمّ حسام: إذًا ستبقين بضيافتنا على الرّحب والسّعة حتى حصولكِ على الجواب الذي ترغبين فيه.

لم يتأخر والدُ سُليمى دقيقةً واحدة عن الذّهاب للقاءِ كبيرِ العائلة. وما أن دخل عليه حتى بادره قائلًا: إنَّ أمرًا مهمًّا

دعاني إلى هذه الزيارة المفاجئة. وأرغبُ في أن نتداولَه وحيدَين ومن دون أن يسمعنا سامعٌ أو متنصّتٌ.

فدعاه صاحبُ الدّار فورًا إلى غرفة جانبية، وبعدما أوصد بابها قال له، بلهجةِ الملهوفِ الذي يتوقّع سماع خبرٍ جللٍ: بالله عليك، ماذا حصل؟ أخبرني بالحال وبالتفصيل.

حاول والد سُليمى أن يكتم خبر محنةِ ابنتِه، **فقال** له: لقد حكمتم، أنتَ وسائرُ كبارِ العائلة، برفضِ زواج ابنتي بحسامٍ ذلك الشَّاب الذي يعتنق مذهبًا غير مذهبِنا، وعلى الرّغم من رابطة النّسبِ التي تربطني بوالديه، ضاربين عُرض الحائطِ بما قد ينتجُ عن ذلك. فالحبُّ الذي يجمع بين قلبيهما جعل ابنتي تُبلغُنا بأنَّها لن تتزوجَ غيرَه حتَّى لو بقيتْ من دونِ زواجٍ العمرَ كلّه أو أن تنهي حياتها منتحرةً.

فقال الكبير: لقد أدخلت الرُّعب إلى قلبي فقد حسبتُ أنّ في الأمرِ مصيبةً ما. فالحمدُ لله. ولكن ما هذا الهراء الذي يسمّونَه حبًّا؟ اطمئنْ فلنْ يطولَ بها الوقتُ حتَّى تنساهُ.

أجابَ والدُها: لا يا عمُّ إنّ الأمر أخطرُ ممّا تظنُّ، لقد تركت المنزلَ منذ يومين ولا نعرفُ أين هي الآن. ولكنّها بالأمسِ كلَّمت والدتَها هاتفيًّا قائلةً بأنَّها تُمهلنا يومين فقط للموافقة على زواجها بحسام، وإلّا سيكون لها تصرفٌ آخرُ، ولكنْ من دون أن تُفصحَ عمّا تحوكُه في رأسها. وقد اعتقدنا، أنا ووالدتها، أن قد تكون قد التحقت به، ولذا ذهبتْ والدتُها هذا الصباح تبحثُ عنها عنده، وقد أبلغتني للتوّ بأنّها ليست هناك وأن لا علم لدى حسامٍ سواءٌ عن مكانها أم عمّا تنوي فعله.

فقال الكبير: هدّئ من روعك، فسأعمل على معرفة مكانِها فور اتصالها بكم.

فقال الأب: أنّى لي أن أهدأ؟ هذه ابنتي الوحيدة ولا أريد أن أخسرها، وبالله عليك أيّهما أهم سلامة وسعادة ابنتي بزواجها بمن تحب، أم تقاليدكم بتحريم زواج بناتِنا بمن هو على غير مذهبنا؟

فقال الكبير: لا تيأسْ، فالأيّامُ كفيلةٌ بأن تُنسيَها بِدعةَ الحبّ هذه. ولا تخَفْ فابنتُك صاحبةُ عقلٍ راجحٍ ولنْ تفعلَ ما يغضِبُك.

أمام إصرارِ هذا الأخير، وبعد نقاشٍ غيرِ مجدٍ، قرّرَ الأبُ أن يبوحَ بما في صدرهِ، فقال: إنّ الأمر أكبرُ وأخطرُ بكثيرٍ من التّهديد. وأنت كبيرُ العائلةِ ومَقامُك هو بمقامِ والدِها وبالتَّالي يهمّكَ شرفُها وسمعتها. لقد أعلمت والدتَها بأنّ ذلك الشّابّ قد اغتصبَها.

فثارتْ ثائرةُ الكبيرِ، وانبرى يهدّدُ ويتوعّدُ بقتلِهما معًا كي يمحوَ العارَ عن شرفِ العائلةِ.

فقال الأبُ: ما تقوله لن يجديَ نفعًا، فالقتلُ لن يمحوَ العارَ بل سيجعلُ الخبرَ على كلِّ لسان. وبالتالي بدلا من سترِ الفضيحةِ فسنتسبّبُ بنشرِها على رؤوسِ الأشهادِ.

فقال الكبيرُ، بعد أن أعادَهُ كلامُ أبي سُليمى إلى رُشدِه: قد تكونُ محقًّا في هذا، ولكن هل لديكَ ما هو أجدى؟

فقال الأب: أجل. لقد أبلغتني والدتُها بأنَّ الشّابَّ على استعدادٍ لعقدِ زواجِه عليها فورًا. ولكنَّه يطلب حضوركم مراسمَ العقد، أنت وسائر كبار العائلة، وشهادةَ اثنين، أو

واحدٍ منكم عليه، مشترطًا بأن يقتصر الحضور، على كبار عائلتنا وعليه وعلى سُليمى ووالديه وأنا ووالدتها. وإذا قبلنا بهذا فسيتسلم يدها من يدي في حفل زفافٍ يتحمَّلُ هو مصاريفَه بالكامل.

غرق ذلك الرّجل بصمتٍ وتفكيرٍ طويلين، ثم قال: أصبحَ الأمر يتطلب موافقةَ سائرِ كبارِ العائلة. فسأكلمهم غدًا.

ولكنّ الأبَ أصرَّ أن يتمّ هذا فورًا فإنْ أوشك النهار أن ينصرم فالليلُ لم يُرخِ بعد سدولَه. عندئذٍ قام صاحب الدّار إلى جهاز الهاتف وطلَب من أترابِه الحضورَ فورًا لأمرٍ مُهمٍّ وعاجلٍ.

وفي أقلّ من السَّاعةِ الواحدةِ اكتمل نصابُ مجلسِ كبار العائلة المكوّن من صاحب الدّار وثلاثةٍ آخرين. وتولّى كبيرُهم شرحَ الموضوع. فتمكَّن، بما عُرفَ عنه من البلاغة في الكلام، من إقناع الجميع بصواب رأي أبي سُليمى، وبأن يحفظَ كلٌّ منهم السّرَّ كما لو كانَ عائدًا لابنتِه.

***

انصرف الأبُ مسرورًا بنتيجة الاجتماع، بعدما وعدهم بتزويدِهم بالمواعيدِ والأمكنةِ فورَ الاتفاقِ عليها مع والدي حسام.

ولدى بلوغه منزلَه اتصلَ بزوجتِه وأبلغَها موافقة الكبار على طلبِ حسامٍ وعن موعدِ التحاقِه هو بها للاتفاق على التفاصيلِ.

ولما انتهت المُكالمة انفردت أساريرُ الأمّ وأشرقَ وجهُها وقالتْ لحسام: سيكون لك ما تشاء وسيأتي زوجي بعد غدٍ

لإبلاغِكم موافقةَ العائلةِ على طلبكَ الزَّواج بسُليمى كما رغبتَ.

فقال حسام :هذا جيد، وسيكون والدي أيضًا قد عاد من الجبل، ولكنْ أعود وأؤكد على أن يبقى بعيدًا عن كلِّ ما خلا جوابكم بالموافقة. وستذهبان غدًا صباحًا، أنتِ ووالدتي ومعكما شقيقتي، هبة لشراء ثوب العرس ولوازمِه. وبعدَ الظُّهر سأرافقكم بدوري لشراء المجوهرات التي أراها تليق بمن ستكون شريكة حياتي.

فقالت: إن كلامك هذا يزيدُ في تعجّبي وإعجابي، لأنّك لم تحاول استغلالَ ضعفِ موقفِنا إنْ معنويًا أو ماديًّا، فشكرًا لك، ولكن أرجو أن تترك لي أن أدفع ثمن الثّوب من مالنا نحن، ولنترك كلفة حفلِ الزَّفاف إلى حين مجيءِ زوجي. أمّا المجوهرات فلنْ أتدخّلَ في أمرِها وبالتالي أرجو إعفائي من مرافقتِكم لشرائِها.

فقال: لكِ ما شئتِ من أمر الثَّوبِ، أمّا الحفلُ فأمرُه محسومٌ لديَّ ولا يقبلُ المناقشةَ.

***

سارت الأمورُ كما اشترطَ حسام. جاء والدُ سُليمى في الموعدِ الذي ضربَه لزوجتِه. ولم يكتفِ بإبلاغِ موافقته، هو وعائلته، على طلبِ حسامٍ بل قدّمَ اعتذارَه عمّا بدرَ منه، عن غيرِ قصدٍ في ذلك اليوم. كما تمّ تحديد يوم وساعة ومكان تنظيمِ عقد الزَّواج، والتأكيد على أن يقتصرَ الحضورُ، إلى جانبِ العروسين ووالدي كلٍّ منهما، على كبارِ عائلةِ والدِ سُليمى فقط. كذلك حُدِّدَ موعدُ الاحتفالِ وأسماءُ المدعوّين. ثم طلبَ حسامٌ من والدي العروس، بعيدًا

عن مسمع والده، عدم توجيه أيَّ لوم إلى ابنتهما ومعاملتها بكلِّ احترامٍ وكأنَّ شيئًا لم يكن.

***

وفي الموعدِ المحدّدِ، وصلَ حسامٌ وأفرادُ عائلتِه إلى منزلِ سُليمى، حيث استُقبِلوا بما يليق بالمناسبةِ من الحفاوة. وبعد دقائقَ معدوداتٍ اكتملَ جمعُ من اشترطَ حسام حضورَهم تنظيم عقدَ الزَّواج.

بعد انتهاءِ المأذونِ من المراسمِ ومغادرتِه، طلبَ حسامٌ من الباقين المكوثَ لبعضِ الوقتِ، إذ لديه بضعُ كلماتٍ يرغبُ في أنْ يسمعوها.

فوقف هو وعروسُه، وذراعُه يلفها تحت جناحِه، وتوجَّه إلى كبارِ العائلةِ قائلًا: كنتُ لم أبلغ الحلُمَ بعد، يوم سألتُ والدي عن الفرقِ بين الأديانِ والمذاهبِ فقال لي: الأديانُ يا بنيَّ من عندِ اللهِ أمّا المذاهبُ فمنْ صُنع البشرِ. والأديانُ تؤلِّفُ بين قلوبِ النّاسِ بينما المذاهبُ كثيرًا ما تفرّقُ بينهم، وإنّي على يقين بأنَّك ستتحقَّقُ من ذلك يومًا ما بنفسِك.

وأضاف، موجّهًا الكلام إلى والده: وها قد حصلَ ما توقعتَه يا أبي الحبيب. فأرجو أن تكون هذه خُطوتِي الأولى في مسيرةٍ عرفتُ أوّلَها وأجهل كيف وأين ستنتهي.

ثم أردف قائلا: من منكم يا سادة قد اختار مذهبه بإرادته؟ فيومَ وُلدَ كلٌّ منكم فُرضَ عليه أن يكون على مذهبِ والده، أليس كذلك؟ ويوم جئنا هذه الدَّار طالبين يد هذه الفتاة، التي اصبحت منذ الآن شريكة حياتي، أُحِبْنا بالرَّفض، من دون ذكر السّببِ، على الرّغم من التّأكيد على أن ليس فيَّ ما يعيبني خَلْقًا أو خُلُقًا. ولكن بعد البحث، فُوجئتُ حينما عرفتُ

أن السَّببَ هو اختلافُ المذهبِ الذي فُرِضَ عليَّ يومَ وُلدتُ، عن مذهبها، على الرّغمِ من رابطةِ القُربى التي تربطُ بين والدتينا ومن أنّهما على المذهبِ نفسه. كما لم يُقِم أيُّ منكم وزنًا للحبِّ الّذي جمعَ بين قلبينا، بل لم يكلِّف نفسه أن يسأل صاحبةَ الشأن عن رأيِها، وفضّلتم التمسّكَ بالتقاليد القبليّة وبالفوارق التي أَوْرَثنا إيَّاها من فرّقوا الدِّين إلى مذاهب منذ ما يزيد عن الألف عامٍ. ويبدو أنّكم نسيتم أو لم يخطر ببالكم، أن قد تقعُ إحدى فتياتِ عائلتِكم بحبِّ شابٍّ قد يكونُ أيضًا على غيرِ الإسلامِ، فتتزوجه حتى من دون العودة إلى أيٍّ منكم، أو إعلامكم بزواجها أيضًا، فماذا كنتم ستفعلون؟

أمّا نحن وبعد تفكيرٍ طويلٍ وجدنا أنّ أمامنا سبيلين لتحقيقِ رغبتنا في الزَّواج، أحدُهما أن نضعَكم أمامَ الأمرِ الواقع فنتزوجَ ضاربَين بقرارِكم عُرض الحائط، إذْ ليس في القوانين ما يمنعُنا لأنّنا لم نعدْ ذينك الطِّفلين اللذين عليهما السّمعُ والطاعةُ ومن دونِ أي اعتراضٍ، بل أصبحْنا بالِغَين راشدَين، وبالتّالي لنا كلُّ الحقّ في اتّخاذِ القرارِ في ما يخصُّنا من أمورِنا الشَّخصيّة وبخاصّة في أن يختارَ كلٌّ منا شريكَ حياتِه. ولكنّنا استبعدنا هذا الحلَّ مراعاةً لشعوركم لأنّه سيبقى على ألْسِنةِ الناسِ ردحًا من الزّمن مما قد يسبّب لكم ولنا بعضَ الإزعاج. ولنثبتَ لكم أنَّ زماننا غيرُ زمانِكم. وأنّنا إذا كنّا نرى أنّ اختلافَ الدِّين لا يمنعُ العيشةَ السَّعيدةَ بين الحبيبين، فهل سيمنعُها اختلافُ المذهب؟ ولذا كان علينا أن نتّبعَ سبيلَ الكذبِ لتحقيقِ غايةٍ شريفةٍ. وهنا اقولُ بلساني ولسانِ زوجتي الحبيبة، نستميحكم عُذرا يا والدِينا. وأُذكّركم بأن نبيّ الله إبرهيم (ع)، يوم حطّمَ الأصنامَ بيديه، وقال له قومه: ﴿أأنت فعَلتَ هذا بآلهتِنا يا إبراهيمُ﴾، ﴿قالَ بل فعلَه كبيرُهم﴾، ولمْ يلمْه الله تعالى على ذلك. وكان حالُنا أيضًا

كمن أحْرجُوه فأخرجوه. فرأينا تمثيل مسرحيّةٍ، أمامكُم، ينحصرُ عددُ مشاهدِيها بما لا يتجاوزُ عددَ أصابعِ اليدين، ولنْ يكونَ صعبًا علينا، بعد بلوغِ غايتِنا الشّريفةِ، أنْ نُوضِحَ لكم الحقيقةَ، ويبقى الأمر بالتَّالي محصورًا ضمنَ العائلةِ الواحدةِ، فتُحْرمُ الألسنةُ المُغرضةُ من الغمز بحقّ أيّ منّا ومنكم. فالآن أقولها وبالفمِ الملآن وبكلّ فخرٍ واعتزازٍ، بأن سُليمتي الحبيبة ليست تلك الفتاةَ الطّائشةَ المستهترةَ، وهي أشرفُ من الشّرفِ نفسِه، وتقيمُ وزنًا كبيرًا للقيم الدّينيّةِ والاجتماعيّةِ والأخلاقيّةِ أكثرَ ممّا تتخيّلون. كما انّني لستُ ذلك الوغدَ الذي يتلاعبُ بعواطفِ الفتياتِ في سبيلِ نزوةٍ جنسيّة عابرةٍ، فكيف إذا كُنَّ ممن تربطني بهنَّ رابطةُ الدّمِ أو الحبِّ الحقيقيّ. فتأكدوا جميعًا بأنَّ حكايةَ الاغتصابِ تلك لم تكن سوى كذبةٍ أُجبِرْنا على اختيارِها واختلاقِها لتحقيقِ رغبتنا في الزَّواج. فالحبُّ لا يعترفُ بالفوارقِ أيًّا كانت ويبقى دومًا أقوى من كلِّ العقباتِ.

ثم خاطبتْ سُليمى والدَيها قائلة: ارجوكما أن تعذُراني، فإذا كنتُ قد تسبّبتُ لكُما ببعضِ الأسى أو الإزعاج فلم يكنْ سهلًا عليّ أنا أيضًا أن أضعَ نفسِي امامكُما بوضع البنتِ الّتي ارتكبت الخطيئةِ الكُبرى لأنَّني كما قال حبيبي حسامٌ أُحرِجْتُ فأُخرِجتُ. وأؤكِّدُ لكما بأن حبيبي هذا لم يُسِءْ إليَّ يومًا ولو بكلمةٍ واحدةٍ.

ما قالَه حسامٌ وسُليمى فاجأ الجميعَ وأوقعَهم في صمتٍ مُطبقٍ، لم يقطعْه سوى كلامٍ أطلقتْه والدتُه من حنجرة تكادُ الفرحةُ تمنعُها من النُّطقِ السّليمِ، والدَّمعُ يترقرقُ في عينيها، بقولها: إنّني ووالدَك نعتزُّ ونفتخر بأنْ تكونَ ابننا يا فلذة كبدي يا حسام. وقد كنتُ دومًا ولا أزالُ على يقينٍ بأنّكَ لا تأتي بأيّ فعلٍ يناقِضُ ما تتحلّى به من الأخلاقِ الحميدةِ وما

تؤمنُ به من المبادِئ السّاميةِ. وأنتِ، يا حبيبتي سُليمى، لن تكوني زوجةَ ابني الغالي فقط، بل ابنتي أيضًا وشقيقةً لابنتي الحبيبةِ هِبة.

وقبلَ أن تهمَّ بالقيامِ كان حسامٌ قد ارتمى بين ذراعيها وذراعي والدِه، الذي كان وقعُ المفاجأةِ عليه مضاعفًا، أذ لم يكن على علمٍ بأيٍّ من فصولِ تلك المسرحيّةِ، كما رغبَ ابنه البار. ولمّا سألَه والدُه عن سببِ عدمِ إعلامِه بما حصلَ، أجابَ بأنّه كرِهَ أنْ يرى منهُ نظرةً فيها ولو جُزءٌ يسيرٌ جدًّا من الشّكّ في سلوكِه.

وفي الوقت عينِه كانت سُليمى تجثو أمامَ والديها لتقبّلَ أيدِيَهما سائلةً الصّفحَ والمُسامحةَ عمَّا تكونُ قد سبَّبْتُهُ لهما من إحراج. فكانَ ردُّهما بأنْ ضمّاها سويّةً إلى قلبيهما وبقبلاتٍ مفعمةٍ بحبِّ وحنانِ الوالدَين.

بعد ذلك توجّه حسامٌ إلى سُليمى مخاطبا: والآن يا حبيبتي هل ترين أنّ ما وعدتُكِ به، قد بدأ يتحقق؟

فقالت: أجلْ يا حبيبي وستراني دومًا على الوعدِ والعهدِ اللذين قطعتُهما لكَ على نفسي بالحبِّ والإخلاصِ.

أمّا أمّ سُليمى فاتَّجهتْ نحو حسامٍ فاتحةً ذراعيها، وبصوتٍ تقطّعُه غصّةُ سعادةٍ ملأت كيانها وهي تقول: تعالَ يا بنيّ يا حسام كي أضمّك إلى صدري وأقبّلَ جبينك يا ذا النفس النقيّةِ العفيفةِ، أيّها الكريم ابن الكِرام. وأرجوك أن تسامحَني عن اتّهامي إيّاكَ بالغدرِ والخيانةِ يومَ جئتُكم أمًّا مكسورةَ الجناح تسألُكم سترَ عارِ ابنتها الوحيدةِ، ما كنتُ أظنُّهُ مَذلّةً سأحملُ ثقلَها مدى العمرِ. ولستُ أدري كيفَ غابَ عن بصيرتي حينها عدمُ استغلالِك ضعفَ موقفِنا، وعوضًا عن أن تفرضَ علينا شروطَ القويّ بادلتنا بشروطِ

الكريمِ المتعالي؟ فهنيئًا لنا، زوجي وأنا، ولسليمى الحبيبةِ، فيك وفي نسبِكَ الشريفِ.

ولمَّا انتهت أمّ سليمى من كلامِها، قال كبيرُ العائلةِ، مخاطبًا حسامًا: لا يسعني يا بنيّ إلَّا أن أقف إجلالًا واحترامًا لكُما ولعقلِكَ الراجح. وأقولُ بالفم الملآن، إنّك على الرّغم من فارقِ السّنِّ بينك وبيننا جميعًا فقد أعطيتَنا درسًا لنْ أنساه ما حييتُ. فكما كنت على يقينٍ بأن ديننا قد ألّف بين النَّاس، فقد اقتنعتُ الآن بأنَّ المذاهبَ، للأسفِ، عادتْ وفرّقتْهُم، ولكنّ الحبَّ، الذي لم أكنْ أومنُ بوجودِه، المدعومَ بالإرادةِ الصَّادقةِ القويّةِ الصّلبةِ، رأيتُه الآنَ يجمعُ القلوبَ متغلِّبًا على كلِّ ما قد يعترِضُه من العقباتِ والحواجزِ. فباسمي ونيابةً عن مجلسِ العائلةِ أرجو الله تعالى أن يباركَ في زواجِكما مدى العُمرِ. وإنّي أهنّئُ سليمى وأبويها بكَ، وأهنّئُ عائلتي بأنّك أصبحتَ واحدًا منّا، وثِقْ بأنّك، ومنذُ السّاعة، سيكونُ لرأيك في شؤونِ العائلةِ المهمّةِ، موقعٌ مميزٌ. ولكنْ ألم يحِن الآنَ وقتُ الذَّهابِ إلى الفندقِ لنكملَ فرحتنا ونحتفل جميعًا بتسلُّمِ العريسِ يدَ عروسِه، النّقية الشّرفِ نقاوةَ ثوبِها الأبيض هذا؟ فكفانا كلامًا، وهلمُّوا إلى الاستمتاع بأحلى الأغاني وأعذبِ الألحانِ.

وهكذا عندما تتفجر الرّغبةُ الصَّادقــةُ فـــي قلبين جمعَ بينهُما حبٌّ حقيقيٌّ وإيمانٌ راسِخٌ بمبادئ ومُثُلٍ قويمةٍ، تعضِدُها إرادةٌ صلبةٌ، تتلاشى الصُّعوباتُ وتضمحلّ المستحيـلاتُ، وتتهاوى الحواجزُ والعقباتُ، فينتصرُ الحبُّ، وتعلو كلمةُ الحَقّ على كلِّ ما يزرعُهُ أصحابُ النُّفوسِ المُغرِضَة في عقولِ أناسٍ أنقياءِ الأفئدةِ وعلى سّجيّتهم، ذنبُهم أنَّهم وثِقوا بمَنْ ظنُّوهُم عُلمَاءَ فُقهاءَ يبغون الخيرَ والصَّلاحَ.

الحربُ تُدمِّر والصداقةُ تُعمِّر

كان فريدٌ يسير في شارع الشانزيليزيه، أشهر شوارع باريس، في أحد أيام الصيف من أواسط ثمانينيّات القرن العشرين، حين لفت نظرَه رجلٌ متقوقعٌ على أحد مقاعد الرصيف، مخفوض الرأس، يرتدي ثيابًا تقولها لم تُغسل منذ شهور. توقف فريدٌ أمامه يُنعم[1] النظر في وجهه، والرجل ساكنٌ وكأنّه صنمٌ نُحتَ من لحمٍ وعظم. استمرّ الاثنان كلٌّ على حاله لبضع دقائق، إلى أن نطق فريدٌ بكلماتٍ بالعربيةِ جعلت الرجلَ يرفع رأسه بحركة لا شعورية، ولكن ما أن تلاقت نظراتُهما حتى أسرع في العودة إلى ما كان عليه.

تأكد فريدٌ من أنّه يعرف هذا الرجل، ولكنّ ذاكرته لم تتمكن من مساعدته الفورية على تذكر من يكون. أهو يعرفه حقًّا؟ أم شُبِّه له هذا؟ أم هو شبيه أحد معارفه؟

استمرَّ ناظرًا إليه لهنيهاتٍ بطيئةٍ إلى أن علا صوته مناديًا، بلهجة السائل: شادي؟؟؟ ثم اقترب منه وقرفصَ أمامه واضعًا يديه على ركبتي الرجل مكررًا مناداته: صديقي شادي رجاءً أجبني ماذا بك؟ ولمَ أنت هنا وعلى هذه الحال؟ والرجل خافضُ الرأس صامتٌ لا يأتي بأيّ حركة تدلُّ على أنّه يسمع النداء.

لم ييأس فريدٌ وتابع توسلاته، قائلا: أجبني يا شادي ألم تعرفني؟ أنا فريد...

---

[1] حسب لسان العرب، يقال: أنعم النظر، لا أمعن.

وقبل أن يكمل قاطعه الرجل قائلا: بلى عرفتك، أنت فريدٌ رفيق الدراسة في الجامعة، أرجوك دعني وشأني، فمن كان مثلي لا يجوز عليه سوى اللعنة. بالله عليك ارحل عني... وانفجر بالبكاء.

فقال فريد: لا لن أتركك مهما قلت أو فعلت. قُم الآن وتعالَ معي ولا تعاندني. أنا لم أرك أو أسمع من أخبارك منذ تخرجنا في الجامعة. هاتِ يدكَ وقمْ يا صديقي.

حاول شادي التملّص، ولكنّ قُواه لم تساعدْه على تخليص يده من قبضة فريد. فقام مستسلمًا متثاقلا، وهو يسأل: إلى أين ستأخذني؟

فأجاب فريد: إلى منزلي. فأنا أقيم في باريس مذ هجرتُ بيروت بعد التخرج بفترة وجيزة. أتذكر ذلك؟

فقال شادي: أجل، ولم أزل أذكر جيدًا ما قلتَه لي يومها بأنَّ لبنانَ، وعلى الرغم من ذلك الرخاء الذي كنّا نعيش فيه يومها، فستأتيه أيامٌ عصيبة لن يكون بمقدورنا تفاديها. وها قد أثبتت الأيام بأنك كنت على صواب، بينما أخطأتُ أنا حين لم أقبل نصيحتك بأن نغادرَه معًا. وأنهى كلماته بتنهيدة طويلة تبعتها قطراتُ دمعٍ سالت على وجنتيه فراح يمسحها براحة يده.

أوقف فريدٌ سيارة أجرة نقلتهما إلى شقته في إحدى طبقات مبنًى فخمٍ في أحد أرقى أحياء العاصمة الفرنسية. ولما فتح فريدٌ باب الشقة تمنّعَ شادي عن الدخول قائلا: لا لن أدخلها كي لا تُدنّسها قذارة نفسي قبل ثيابي.

ولكن فريدًا جرّه من يده وهو يقول: بل ستدخل لأنك ستعود شادي الذي عرفته ورافقته سنواتٍ عديدة. وبقي ممسكًا بيده إلى أن أدخله إلى الحمام ليغتسل. ثم أحضر له

من ثيابه ما يناسب جوَّ تلك الأيام، وأخذ منه ما كان يرتديه ورماه في القمامة.

وبعدما اغتسل شادي خرج شخصًا آخر. فقال له فريدٌ: هيا بنا الآن إلى مطعمٍ قريبٍ من هنا لتناول الغداء، لأن زوجتي والأولاد قد ذهبوا منذ يومين لقضاء بضعة أسابيع في إحدى مدن الاصطياف الفرنسية على ساحل المتوسط، وأنا لا وقت لدي للاهتمام بأمور الطعام في المنزل، وظروف العمل تحتّم عليّ ارتياد المطاعم الدائم.

بعد عودتهما من المطعم قال فريد: والآن يا صديقي هل لك أن تُخبرني ما الذي أوصلك إلى هذا الحال؟

فقال شادي، بصوت الرجل الحزين المنكسر: آخٍ من هذه الحرب اللعينة، يا صديقي، فقد دمرتني وخرّبت بيتي ومعيشتي، أكثر مما فعلت بلبنان كلِّه. ثم تابع سرد حكايته قائلًا:

بعدما غادرتَنا بأيامٍ معدودات قيّض الله لي عملا، في حقل تخصصنا، في إحدى الشركات التجارية. وسارت الأمور على خير ما يرام، إن في ارتقائي إلى المراكز المتقدمة، أم في الأجر. وتزوجت بعد قصة حبٍّ كالذي نقرأه في الروايات. وأصبحت ربَّ أسرة سعيدة، ما جعلني أشعر كأني أعيش في الجنّة. ولكنّ ذلك لم يدمْ سوى بضع سنوات، انتهت مع غرق لبنان في خضمِّ هذه الحرب العبثيّة التي بدأت في الربع الثاني من العام 1975، كما تعلم. وبدأ تدمير الوسط التجاري في بيروت ومعه دمرت مكاتب الشركة. ثم طاول الدمار جُزءًا كبيرًا من المبنى الذي كنا نقطن بإحدى شققه، ما جعله غيرَ صالحٍ للسكن. فاضطررنا إلى استئجار شقة في أحد الأحياء البعيدة عن محاور القتال. وانتقلنا إليها مع ما سلم من الأثاث، الذي لنا مع كل قطعة منه، ذكرى مختلفة

عن الآخر، لأننا كنّا، أنا وغادة، زوجتي، نشعر بسعادة الأطفال كلما اشترينا واحدة منها، حسب الحاجة وتوفّر المال. ثم قرر أصحاب الشركة إقفالها وغادروا إلى الولايات المتحدة على ما أذكر. فتحولتُ من رئيس أهمّ أقسامها إلى باحثٍ عن عمل يؤمّن لنا دخلا يغطّي كلفة نفقات المعيشة التي أخذت تسير بمنحًى تصاعدي. كما أنّي رفضتُ رفضًا قاطعًا الانغماس في أتون تلك الأحداث وقذارات المليشيات، مما رأيته رأي العين أو سمعته من الثقات. وعلى الرُّغم من حاجتي إلى المال، وما كنت أراه من أنواع النقود التي كانت تجري بين أيدي من شارك في تلك الأعمال القذرة، من تقتيلٍ وتشريد... ومن الإغراءات التي كانت تعرض علي، فقد التزمت موقفي على الرفض، وألّا أساهم في إهراق دمٍ أو تدمير حجر.

لم يطل حال الضياع كثيرًا حتى تبلغت عرضًا للعمل في إحدى دول الخليج العربي. ولكنّ شروطه كانت أقرب إلى نصف ما كان يعرض عليّ قبل الحرب، وما كنت أرفضه مدعيًا بأنني لست بحاجة إلى هجر أهلي وبلدي الذي كنت أعتبره أجمل وأفضل بلدان العالم، كما أنّ دخلي وشروط عملي كانا جيدين جدًا. وعلى الرُّغم من ذلك، فقد قبلت العرض على أمل أن يكون لمدة محدودة لا تتعدى السنة الواحدة، فتكون الحرب قد انتهت، ونعود بعدها للعيش في لبنان كسابق عهدنا. ولكنّ السنة تضاعفت بضع مرّات، إلى أن لاحت بارقة أملٍ في عودة الأمن والسلام إلى لبنان، بعدما غادره المقاتلون الفلسطينيون إثر اجتياح العدو الإسرائيلي لما يزيد عن مساحة نصف أرضه، بما فيها العاصمة بيروت. فقررنا العودة للعيش بين الأهل والأقارب والأصدقاء.

وما أن بدأتُ بتأسيس عملٍ خاصٍ بي، حتى عاودت نيران الحرب الاشتعال. ولم تمضِ بضعة شهورٍ حتى بلغت عنفًا وضراوةً أشد من السابق. وازداد تشرذم اللبنانيين، وتقاسمت المليشيات المتحاربة أرض الوطن، وتحول كل قسمٍ منها إلى شبه دويلة لها استقلالها الداخلي. ومن سوء حظّي أن بدأت أتعرض للضغط كي أشارك في مسؤوليّة إداريّة في المليشيا التي تتحكّم بالمنطقة التي يعتبر حيّنا جزءًا منها. حاولت التملّص، بالتسويف أولا، ثم بادعاء أعذارٍ رأوها واهية. إلى أن أعلمني صديقٌ مخلصٌ، فُرِضت عليه المشاركة في قيادة تلك الميليشيا، بأنّه سمع من أحد أقوى أفرادها أنْ سيكون له موقفٌ غير ودّيٍّ في حال استمراري بالرفض، ما اعتبره صديقي بأنه تهديدٌ قد ينتهي بأذيتي جسديًّا، لما لذلك الشخص من السّوابق.

وكنت في الوقت عينه أسعى للحصول على تأشيرة دخولٍ إلى أي بلدٍ قد أجد فيه فرصة عمل يمكّنني وعائلتي من العيش فيه لنكون بمأمنٍ من القذائف والتهديد. ويشاء القدر أن أتبلّغ موافقة السفارة الفرنسية على منحي تأشيرة سياحية في الوقت نفسه الذي بلغتني فيه كلمات «التهديد». فكان أن قرّرنا، أنا وزوجتي، أن أسافرَ فورًا، ومن دون أن يعلم الأولاد السبب الحقيقي لسفري المفاجئ.

وفي اليوم التالي لوصولي إلى باريس، بدأتُ رحلة البحث عن العمل المنشود. فقصدت أناسًا ممن عرّفتني بهم علاقات العمل، في السابق، إلى جانب البحث في الإعلانات المبوّبة المنشورة في الصحف، بالإضافة إلى مكاتب الاستخدام. ورحتُ أيضًا أجوب الشوارع آملا في أن أحظى بإعلانٍ، على واجهة أو باب أحد المتاجر أو الشركات أو المصانع، عن توفر فرص عمل. فمضى الأسبوع الأول ثم الثاني ثم

الثالث من دون جدوى. وفي الرابع حظيت بواحد من تلك الإعلانات، فدخلت فورًا أستفسر عن الأمر. فأرشدني أحدهم إلى غرفة جانبية، أُلصق على بابها لوحة خُطَّ عليها عبارة «شؤون العاملين»، وإذا بي أمام سيدة جميلة أنيقة توحي معالم وجهها بأنها في أوائل العقد الخامس من العمر.

بعد تبادل التحية، قالت: نعم، كيف يمكنني أن أخدمك؟

قلت: إني أبحث عن عمل، وقد رأيت على الباب الخارجي إعلانا يفيد بأن لديكم فرص عمل مختلفة.

قالت: وأيَّ نوعٍ من العمل تطلب؟

قلت: لا على التَّعيين.

قالت: لم أفهم. ولكن أعطني سيرتك الذاتية.

فناولتها إياها وقلت: لستُ متمسكًا بالعمل في تخصصي.

وبعدما ألقت عليها نظرة سريعة، قالت: أصدقني القول كي أستطيع مساعدتك.

قلت: أنا لبناني، وأعتقد أنكِ قد سمعت عما يجري في بلدي منذ ما يزيد عن السنوات العشر. وبعدما خسرت عملي فيه، جئت باريس لعلني أجد فيها عملًا يُغطّي أجرُه نفقات معيشتي وعائلتي فيها. ولا أطمح في أن أعيش في أرقى أحيائها. وكل ما أسعى إليه هو أن أنقذ عائلتي من ويلات هذه الحرب اللعينة، التي يُقتل فيها الإنسان بسبب عقيدته الدينية.

فنظرت إليّ مليًا ثم قالت: أفهم وأقدّر وضعك ولكن يؤسفني إعلامُك بأن ليس لك حظٌّ في شركتنا، ولكنّي سأحاول مساعدتك قدر استطاعتي، فعد إليَّ بعد يومين أكون قد سألت بعض الأصدقاء عن إمكانيّة وجود عملٍ يناسب علمك وخبرتك.

فشكرتها وخرجت من مكتبها تلفني بارقة أمل بإمكانية تحقيق ما جئت أصبو إليه.

عدت إليها في اليوم الموعود، وكان النهار قد قارب أن ينتصف، فرأيتها تتهيأ للخروج، وقبل أن أتفوه ببنت شفة، قالت: إنّها ساعة استراحتي، فسأذهب إلى الكافتيريا المجاورة لتناول الغداء. وأمسكت بيدي وأكملت: تعالَ معي حيث أخبرك بالمستجدات.

ولم تنتظر لترى ردة فعلي وسارت أمامي من دون أن تترك لي فرصة الإفلات من يدها. ولما وصلنا إلى الكافتيريا سألتني، وبلهجة الأمر، عما أحب أن آكل، ولم تأبه لاعتذاري وكررت سؤالها قائلة: أسرع فليس لدينا الكثيرُ من الوقت.

وبينما نحن نتناول الطعام، قالت: أتسمح لي بأن أخاطبك باسمك، شادي، فقط ومن دون ألقاب؟

قلت: أجل، أجل، وهذا من دواعي سروري.

فقالت: وأنت إذًا تخاطبني باسمي، سيلين.

وبعدما انتهينا من تناول الطعام، قالت: أعلم جيدًا أنك متلهفٌ لسماع خبرٍ سارٍّ، ولكن عذرًا فما زلت أنتظر الأجوبة من أصدقائي. ثم أخرجت من محفظتها بطاقة التعريف وكتبت عليها رقم هاتف منزلها، وأعطتني إياها، وقالت: يمكنك أن تكلمني هاتفيًا ساعة تشاء، سواء على هاتف المكتب أم المنزل، فهذا سيريحك من عناء التنقل. ولكن اعذرني الآن فقد حان وقت العودة إلى المكتب. وأنا بانتظار مكالمتك بعد غد.

فخرجت بعدها لمعاودة التسكع في الشوارع بحثًا عن فرصة أخرى. فانقضى ما تبقى من ذلك النهار، وتبعه يوم آخر، ولم أزل خالي الوفاض. وفي اليوم التالي، وبناءً على

طلبها، اتصلت على رقم هاتف مكتبها، فأجابتني إحدى زميلاتها بأن وعكة صحيَّة اضطرتها إلى ملازمة المنزل. فتحولتُ إلى هاتف المنزل، فما أن عرّفتها بنفسي حتى قالت: تعالَ حالًا فأنا بانتظارك. ثم أعطتني العنوان واسم محطة قطار الأنفاق القريبة منها.

بعد نحو نصف الساعة، كنت أطرق بابها. ففتحته ودعتني إلى الدخول. ثم قالت: سأحضر لي كوبًا من الشاي، وأنت ماذا تفضل؟ الشاي أم القهوة؟

قلت: لا فرق، فليكن كما تشربين أنتِ.

وعادت بعد قليل وناولتني الكوب وجلست على مقعد بمواجهتي. وبعدما رشفت بعضا من كوبها، قالت: أين تقيم؟

قلت: في أحد فنادق الدرجة الرابعة.

قالت: وهل تقيم على الأراضي الفرنسية بشكل قانوني؟

قلت: لقد دخلت البلاد بتأشيرة سياحية ولم أزل ضمن المدة القانونية.

قالت: حسنًا. لقد ورثتُ أنا هذه الشقة عن زوجي الذي تُوفي منذ نحو السنوات الثلاث جراء حادث سير، ولا أحد يشاركني الإقامة فيها كما ترى. ومن محتوياتها غرفتان للنوم، أشغل إحداهما. فقم واذهب فورًا إلى الفندق وأحضر أمتعتك، لتقيم في الغرفة الأخرى.

فنظرت إليها متعجبًا لأنّي فوجئت بما قالت، وقبل أن أنطق بكلمة واحدة، قالت: لا تعجب، فبحكم عملي وخبرتي الطويلة في شؤون العاملين، ومن كثرة المقابلات التي أجريتها مع طالبي العمل، فقد أصبحتْ لدي القدرة على معرفة الكثير من صفات الشخص في الدقائق الأولى من أول محادثة أجريها معه. ولأنّي مقتنعة من أنّك رجلٌ صادقٌ حميدُ الأخلاق، لذلك أردت مساعدتك قدر استطاعتي. ولذا

عرضت عليك هذا. فلا تتأخر وإلّا غيّرتُ رأيي. وأتبعت قولها هذا بابتسامة المودة.

لم أحتجْ لكثير من الوقت لأذهب إلى الفندق وأسدِّدَ ما يتوجب عليّ، وأحضرَ أمتعتي وأعود إلى منزل سيلين. فأرشدتني إلى «غرفتي» وكلِّ ما فيها. ثم تركتني وخرجت. أجَلْتُ النظر مليًا في جميع زوايا الغرفة، والشعور بالسعادة يملأ قلبي. لم أصدِّق بأنني ارتقيت بالسكن من غرفة في فندق من الدرجة الرابعة، إلى غرفة بحمامها الخاص وأثاثها الأنيق والنظيف، تقولها من فنادق الدرجة الأولى.

وبعدما انتهيت من ترتيب أمتعتي في الأمكنة المخصصة لكل منها، كما أشارت سيلين، خرجت لأنظمَّ إليها في غرفة الجلوس، فشكرتها بما أعانني لساني من الكلمات. وناولتها جواز سفري. فقالت: لماذا تعطيني إياه؟

قلت: إنّي غريب لا عنكِ فقط، بل عن كامل هذه الأرض. فأرجو أن تحتفظي به كضمان لإقامتي في منزلك...

فقاطعتني، قائلة: كفى، أرجوك. لقد سبق أن قلتُ لك بأنّي متأكدةٌ من صدقك، والصادق لا يسرق ولا يغدر. فاحتفظ به. ولكن هناك أمرًا مهمّا عليك القيامُ به غدًا ومن دون تأخير.

قلت: وما هو؟

قالت: قانونيّة الإقامة في فرنسا.

قلت: لقد أخبرتكِ أنّني لم أزل ضمن المدة القانونية.

قالت: هذا صحيح. ولكن ماذا ستفعل حين تنتهي تلك المدّة؟

قلت: لستُ أدري. فماذا تقترحين؟

قالت: تذهب غدًا إلى الجامعة لتتقدم بطلب الانتساب إلى إحدى كلياتها. وعندما تحصل على القبول تذهب إلى دائرة

الشرطة لتحصل على إذن بالإقامة كطالب. وأنا على ثقة من أنّ الكثيرين من أصحاب العمل الذين سبق أن تسلموا طلباتك، قد رفضوها لأنك لا تحمل إقامة دائمة. وإقامة الطالب يمكن تحويلها إلى إقامة عمل بإجراء بسيط.

وأردفت قائلة: وفي المساء سأكلم صديقة لي تعمل في إدارة الجامعة، لأطلب منها أن تحدد لك موعدًا لتقديم الطلب. وأنا واثقة من أنّها ستساعدك قدر الإمكان.

قلت: لست أدري كيف أشكرُك، وأردّ جميلك.

قالت: لا بأس عليك. وأتمنى لك حظًّا سعيدًا.

وقبل أن يُرخي الليلُ سدوله، قلت لها: إنّي بحاجة إلى الذهاب لشراء بعض الأشياء، فهل يلزمك ما أحضره معي؟

قالت: شكرًا، لست بحاجة إلى أي شيء، ولكن انتظرني قليلا.

فدخلت إلى غرفتها ثم عادت وناولتني مفتاحًا، وقالت: هذا المفتاح هو لباب الشقة ولبوابة مدخل المبنى، احتفظ به لأن أوقات خروجي وعودتي قد تختلف عن أوقاتك.

ذهبتُ فورًا إلى أقرب هاتفٍ عمومي لمكالمة زوجتي كالعادة. وبعد تبادل التحيات والأشواق والاطمئنان عنها وعن الأولاد، أخبرتها بأنني استأجرت غرفة وانتقلت إليها ظهر هذا اليوم، وبذلك أوفر ما لا يقل عن نصف نفقات الإقامة في الفندق. وتعمدت إخفاء الحقيقة كي لا تتوالى الأسئلة النسائية، إذ إنّ ضيقَ ذات اليد فرضَ على قبول تلك الإقامة.

فقالت: هذا خبر جيد. وأضافت: وهل تذكر صديقنا نادر؟

قلت: ذلك الذي كان يملك محلا في الوسط التجاري لبيع الألبسة النسائية؟

قالت: أجل، فقد التقيته منذ بضعة أيام، في «السوبرماركت» القريب من منزلنا، وأخبرني بأنّه تحوّل إلى تجارة الجملة، ويستورد ثيابًا من تركيا وغيرها، من أفضل الأنواع المصنوعة خصّيصا لبعض بيوت الأزياء الأوروبية المشهورة، ومع إبقاء العلامات عليها أيضًا. وقد عرض عليَّ أن يسلمني كمياتٍ منها على سبيل الأمانة، وبأسعار الجملة، أسدد أثمانها بعد البيع. مشترطًا ألَّا يعرف أحدٌ من أين أشتريها كي لا يبلغ الخبر عملاءه من تجار المفرق. وبعدما تشاورت مع بعض صديقاتي وجاراتي، اللواتي شجعنني وتعهدنَ بمساعدتي، ذهبت إليه صباح اليوم وأحضرت نحو عشرين قطعة. وبعد الظهر تمكنت من بيع خمسٍ منها فربحت ما يوازي قيمة نفقات المنزل لمدة شهر تقريبًا بما فيها بدل الإيجار. فاطمئنّ ولا تتعجل بقبول أي عمل لا يناسب مؤهلاتك.

وبعد انتهاء المكالمة ذهبت إلى محل لبيع الزهور واشتريت وردة بيضاء[1]، وقفلت عائدًا إلى منزل سيلين. وقرعت الباب قبل أن أفتحه. فسألتني: لماذا لم تستعمل المفتاح؟

أجبت: من عاداتنا ألَّا ندخل بيتًا من دون استئذان أهله.

فنظرت إليَّ بتعجبٍ وقالت: أرجو أن تعتبر نفسك أحد أهل هذا البيت.

فشكرتها واقتربت منها وقدمت لها الوردة، وقلت: أرجو أن تقبليها منّي عربون شكرٍ وامتنانٍ وتقديرٍ على كل ما قدمت لي.

فأخذَتْها وضمّتني بين ذراعيها وطبعت على خدّي قبلة أخوية، ثم قالت: في كلِّ ساعة ودقيقة تُثبت لي أنّني كنتُ

[1] الأبيض: رمز الطهارة والعفاف وحسن السيرة.

على حقٍّ بأنّك لستَ رجلًا صادقًا فقط بل أيضًا، ذو أخلاقٍ أصبحت اليوم نادرة الوجود.

فقاطعه فريدٌ قائلاً: كلُّ من عرفك من رفاقنا شهد بمثل شهادتها. أكملْ يا صديقي.

فشكره شادي وتابع، ثم أضافت قائلة: ولك مني أيضًا خبرٌ جيد.

قلت: الحمد لله فيبدو أنّ الأخبار السارة في هذا النهار ستجعله من أسعد أيامي. فما هو خبرك التالي؟

قالت: لقد كلمت صديقتي كوليت، التي تعمل في الجامعة وشرحت لها وضعك. فطلبت مني أن تذهب إليها غدًا مصطحبًا أوراقك وشهاداتك العلمية، وأكدت لي بأنها ستعمل جهدها لحصولك على إفادة القبول وبأقصى سرعة.

هذا الخبر، زادني تفاؤلًا، وجعلني أعيش في دنيا أخرى من الأحلام. فعدت إليها وضممتها بين يدي ورفعتها بهما، ورحت أدور بها حول نفسي. ثم أنزلتها وطبعت على جبينها قبلة شكرٍ ومودةٍ واحترام.

تملّكني الأرق تلك الليلة بانتظار أن ينبلج الفجر. وما أن أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة صباحًا حتى أصبحت خارج المنزل متوجها إلى الجامعة. وكانت سيلين قد سبقتني بالخروج. وفي تمام التاسعة كنت بباب مكتب كوليت. فأشارت إليَّ بالدخول. فحييتها وعرّفتها بنفسي. فابتسمت ابتسامة عريضة ودعتني إلى الجلوس وطلبت الأوراق. فألقت نظرة سريعة على كلٍّ منها وقالت: جيد، جيد. ثم ناولتني نموذجًا مطبوعًا، وهي تقول: الأمر ليس صعبًا وأوراقك مكتملة، فانتقل إلى تلك الطاولة واملأ هذا الطلب. وأشارت بيدها إلى مكتبٍ جانبيٍّ خالٍ.

وبعدما أتممت المطلوب سلمتها الطلب، فدققت فيه جيدًا. ثم ناولتني بطاقتها وقالت: أرجو أن تكلمني بعد ثلاثة أيام لأعطيك النتيجة. والتي ستكون إيجابية على الأغلب.

فشكرتها وانصرفت. ثم ذهبت إلى محل بقالة قريبٍ من شارع «سان ميشيل»، يبيع الكثير من المنتجات والمواد مما يحتاج إليها المطبخ اللبناني، بالإضافة إلى خبزنا التقليدي. فحملت ما اخترته منها وعدت أدراجي إلى البيت، وكان النهار قد انتصف. فأمضيت ما تبقى منه متنقلا بين زواياه، لاشتياقي إلى الدفء والسكون اللذين حرمتني منهما إقامتي في ذلك الفندق. وقبل موعد عودة سيلين من عملها بنحو الساعة، دخلت إلى المطبخ وعملت على تحضير ما أتقن صنعه من الأطعمة اللبنانية الشهية وأولها التبولة وبعض «المقبلات».

ولما وصلت سيلين فوجئت بتلك المائدة، وأرسلت شهقة إعجاب وقالت: لا أصدق، ما هذه الأطباق؟ فلم يسبق لي أن رأيت مثلها، هل بإمكاننا أن نأكل كلّ ما فيها؟

فدخلت مسرعة إلى الحمام وغسلت يديها وعادت فورًا وجلست إلى الطاولة، وقبل أن تمتدَّ يدها إلى إيّ من الأطباق، قلت لها: مهلا، فللأطعمة اللبنانية ترتيبٌ تسلسلي في تناولها. فدعيني أريكِ هذا التسلسل. فأخذت صحنها وصببت فيه بعضًا من التبولة، وقلت: بهذه نبدأ.

قالت: وما هذا؟

قلت: هذه «التبّولة» وهي أشهر أنواع السلطات اللبنانية. وبسبب محتوياتها فهي تعدُّ غذاءً كاملا.

ولمَّا ذاقتها قالت: إن طعمها لذيذٌ وشهيٌّ جدًّا. فسآكلها كلها.

قلت: لا، فالأصناف الأخرى شهيّة ولذيذة أيضًا.

ولما انتهينا من العشاء، وعلى الرغم من أنّني نصحت لها بألا تسرف في الأكل، فقد قامت عن الكرسي وانطرحت على ديوان غرفة الجلوس ويداها على بطنها. وهي تقول: إنّه حقًا أكلٌ لذيذٌ ولكن يبدو أنني قد بالغت.

فقلت: لا بأس عليكِ، فعلاجك عندي.

ثم ذهبت إلى المطبخ وعدت أحمل فنجانين من القهوة المرة المغلية على الطريقة العربية الأصيلة مع حب الهال، التي كنت قد أعددتها سابقًا. فقدمت لها واحدًا، ورحت أرشفُ من الثاني لأريها كيف تفعل. وبعدما شربته بالكامل شعرت بأن عملية الهضم في معدتها بدأت تسير بوتيرة أسرع من المعتاد، فطلبت فنجانًا آخر.

فقلت لها: لا، واحدٌ كافٍ، لأن الثاني قد يحرمكِ النوم الليل بطوله.

فقالت: عليَّ أن أمتثل لأوامرك، فهذا أكلكم وطريقة عيشكم وأنت الخبير بهما.

وفي اليوم التالي، وكنت قد استأذنت سيلين، قبل أن تغادر المنزل إلى عملها، في استعمال الهاتف لمتابعة البحث عن عمل، ذهبت إلى مكتبةٍ قريبة واشتريت واحدة مما توفر من الصحف اللبنانية ومن أشهر جريدتين فرنسيتين، لمتابعة الأخبار اللبنانية والمحلية والعالمية، وللبحث في الإعلانات المبوبة عن فرصة عمل.

وتوالت الأيام على هذا المنوال، من دون أن أنسى يومًا الاتصال بزوجتي لأطمئن عليها وعلى الأولاد. وهذا بعدما حصلت على القبول من الجامعة بفضل كوليت ثم على إذن الإقامة.

إلى ان حصل ما لم يكن بالحسبان. ففي إحدى الليالي وبينما كنت في فراشي أتهيأ للنوم، وإذ بسيلين تدخل عليّ،

شبه عارية، وتركض مسرعة لتندس في فراشي وتراودني عن نفسها. فلم أتمكن من المقاومة ووقعت في المحظور.

ولما عدتُ إلى رُشدي، قلت لها: ماذا دهاكِ؟ وماذا فعلتِ بي؟

قالت: وأيُّ خطأٍ ارتكبتُه؟ ألم يسرُّكَ ما حصل؟ وألم يشعركُ باللذة والنشوة؟

قلت: بلا ولكنها لذةٌ زائفة.

قالت: لم أفهم؟ بل كيف تكون اللذة زائفة؟

قلت: كلُّ لذة يعقبها ألمٌ تكون زائفة.

قالت: وما هو ذلك الألم الذي تسببت لك به؟ فقد كان جسدي بحاجة إليك، كما كان جسدُك بحاجة إليَّ، وهذه كل الحكاية.

قلت: ألم تصفيني بأنني صادقٌ؟

قالت: بلى.

قلت: وإذا سألتني زوجتي، فهل بإمكاني أن أنفيَ ما حصل بيننا؟ وقد قطع كلٌّ منا عهدًا تُجاه الآخر بالإخلاص التام. فإن صدقتها فسيكون مصيرنا الافتراق ما قد يؤدي إلى دماري ودمار نفوس أولادي. وإن كذبت، فسيبقى ضميري يعذبني مدي العمر. والألم الذي يسببه عذاب الضمير يكون أعظمَ من أي ألمٍ جسديّ.

قالت: لا تضخّم الأمور أكثر من حجمها، ولا تعطها تفسيرًا فلسفيًا، فكلٌّ منا حرٌّ بجسده.

قلت: بل هذه هي الحرية الزائفة، والتي تدمر العائلة. وتدمير العائلة يؤدي إلى تدمير المجتمع.

فقالت: بالله عليك دعْ هذه الأفكار الفلسفية جانبًا، وعشْ ليومك ولنفسك، فإنّ لها علينا حقًّا. وتركتني وخرجت.

ولكن، وكما أنَّ «رحلةَ الألف ميل تبدأ بخطوة»، على حدِّ قول المثل الصيني، فالسير على طريق الخطيئة يحتاج أيضًا إلى الزلّة الأولى. وهكذا راحت تتكرر لياليا الحمراء. ولكنَّ ذلك لم ينسني أبدًا زوجتي وأولادي.

وفي إحدى المكالمات مع زوجتي أخبرتني أن صديقي في تلك الميليشيا التي كانت السبب في سفري العاجل إلى باريس، قد أعلمها بأنّ الأمر قد سُوّيَ وأنَّ بإمكاني العودة إلى لبنان ساعة أشاء.

فأبلغت سيلين بأني قررت السفر إلى بيروت. وفي اليوم التالي خرجت لشراء بعض الهدايا لزوجتي وأولادي بما يسمح لي ما تبقى معي من المال. وعدت مساء إلى المنزل، بعدما أبلغت زوجتي بموعد وصولي، وجمعت أمتعتي تحضيرًا للسفر. وفي الصباح ودعت سيلين وشكرتها على كل ما قدمته لي من مساعدات. ولأنّي لا أعرف متى سأعود، أعدت لها مفتاح الشقة، وغادرتها.

***

خرجت من مطار بيروت، فوجدت غادة بانتظاري. فتعانقنا طويلا وكأني كنت غائبًا عنها لسنوات طوال. وفي المنزل تبادلت والأولاد قُبلَ الشوق والاشتياق. وامتلأ قلبي بشعور لا يوصف مما أحطّتُ به من الحب والحنان.

مضى الأسبوع الأول على عودتي وأنا في غاية السعادة، فحضن العائلة الذي حُرمته بضعة شهور عاد يمدّني بالدفءٍ والأمان. ومع الأسبوع الثاني بدأت أشعر ببعض التغيير في تصرفات غادة وكلامها معي. اعتقدت أولا أنها متعبة من مسؤولية المنزل صباحًا، والعمل في بيع الألبسة بعد الظهر. ثم رحت أسمع منها تلميحاتٍ لم أعهدها من قبل. وأنا أحاول أن أساعدها في الأعمال المنزلية قدر المستطاع ظانًّا بأنّني

بذلك قد أخفّف عنها بعض الأعباء. ومع بداية الأسبوع التالي أصبحتْ تثور وتغضب لأتفه الأسباب، وأحيانًا من دون سبب، وازدادت تلميحاتها. إلى أن فاجأتني يومًا بقولها: ألا تعلم أن لدى المرأة إحساسًا لا يخطئ؟

قلت: وما هي مناسبة هذا الكلام؟

فقالت، بلهجة الواثق: أنا متأكدة من أنّك قد خنتني مع إحدى الباريسيات. وبما عهدت بك من الصدق، أستحلفك بالله ألّا تنكر.

فكان وقعُ هذا الكلام المفاجئ عليّ أعظم من وقع الصاعقة. وانهارت قُوايَ، وتهاويت على أقرب مقعد مني. وكأنّي دخلت في غيبوبة من فداحة الأمر الذي وقعتُ فيه. ففي النكران كذبٌ أمقتُه، وما قد يجعل الشكّ ثالثنا، وعذاب الضمير سيقتلني. وإن صدقتها القول فمصيري ومصير العائلة في المجهول. أمّا هي فقد هرعت إلى المطبخ وأحضرت كوبًا من الماء ووضعت يدها تحت رأسي وأخذت تسقيني رشفات بالأخرى، مرفقة ذلك بكلماتِ الحب والحنان والاعتذار، أحيانًا. وأحيانًا تغمغم بكلمات فهمت منها أن شكها أصبح يقينًا. وبعدما أخذت قراري، فتحت عينيّ وقلت: كنت ولم أزل وسأبقى أحبُّك مهما حصل. وأحلّفك بحبك وبمصلحة الأولاد أن تغفري لي زلتي. فلا أنكر بأنّي أخطأت، وأسألك السماح.

فابتعدت عنّي وارتمت على المقعد المقابل، وقالت: اليوم هو آخر أيام عيشنا معًا. فعلينا الانفصال فورًا. ومنذ هذه الدقيقة أصبحتَ غريبًا عني. ولكن كي لا يؤثّر ذلك على الأولاد يجب أن يتمّ كلُّ شيء بسرية تامّة.

حاولت جاهدًا أن أثنيها عن قرارها، بوسائل شتّى، ولكنّي لم أُفلح. فأيقنت أن ليونة القلب المحب والمملوء بالحنان

تُجاهي، تحولت قساوة أشد صلابة من حجر الصوان. فقلت: لكِ ما تشائين. ولكن ثقي بأنّ حبك باقٍ في قلبي إلى الأبد. وسأجمع أمتعتي فورًا وأنتقل إلى أحد الفنادق ريثما أجد لي مسكنًا آوي إليه. وموعدنا غدًا للبدء بالإجراءات الرسمية. وأرجو أن تقبّلي الأولاد عني فور عودتهم من المدرسة وتبلغيهم محبتي. وبأنني اضطررت أن أسافر فورًا لأمر عاجل.

وخرجت من المنزل مكسور الجَناح وقلبي يخفق حزنًا من خسارة السعادة التي لم أتمكن من المحافظة عليها، والدموع تملأ عينيَّ. وزادني أسًى أنّها لم تسمح لي بأن أضمّها مودعًا.

فذهبت إلى الفندق وحجزت غرفة لليلة واحدة، أودعت فيها حقيبة أمتعتي. ثم ذهبت إلى المصرف وسحبت بعض المال وتوجهت إلى أقرب مكتب سفر فاشتريت بطاقة على أول طائرة متوجهة إلى باريس. ومع ساعات الصباح الأولى لليوم التالي وصلت إلى مطار العاصمة الفرنسية.

وفور خروجي من باب الوصول، وتحققي من أن الأولاد قد ذهبوا إلى المدرسة، توجهت إلى أقرب هاتفٍ عمومي واتصلت بغادة. وقلت لها: أرجو أن تعذريني فلن أستطيع أن أوافيَكِ حسب موعدنا. فحبّي لكِ لا يسمح لي بالانفصال عنكِ. ولا تبحثي عني في بيروت لأنّني قد وصلت للتوّ إلى باريس. وسأكلمك لاحقًا. وأنهيت المكالمة قبل أن أسمع جوابها. ثم اتصلت بسيلين على المنزل، فلم ألقَ جوابًا. وانتظرت حتى حان موعد بدء العمل في مكتبها. وإذا بإحدى زميلاتها، تبلغني أن سيلين قد تركت العمل في الشركة وغادرت إلى الولايات المتحدة، ولا أحد من زملائها يعلم غير ذلك. فاتصلت بصديقتها كوليت في الجامعة، فقالت:

أجل لقد ذهبت إلى الولايات المتحدة لأن أخاها قد أصيب، جراء حادث سير، بإصابة بالغة جعلته مقعدًا وبحاجة إلى من يعتني به عناية كاملة. وقد كلمتني قبل سفرها لتخبرني بذلك ولتسألني عما إذا كان في سجلات الجامعة رقمٌ هاتفيٌ يمكن عبره الاتصال بك في لبنان. فأجبتها بالنفي.

فقلت: وهل تركت لي عندك شيئًا؟ فأجابت بِلا، أيضًا.

***

وأكمل شادي قائلا: عند ذلك لم أجد أمامي سوى ذلك الفندق التعيس. لأعود إلى سيرتي الأولى في البحث عن عمل. ولكنّ ما بحوزتي من المال لم يكن يكفي للإقامة فيه سوى لأسبوعين فقط. فاضطررت في الأسبوع الثالث أن أصبح مشردًا في الشوارع كما وجدتني، لأنني طُردت من الفندق.

فقال فريد: وكم مضى عليك من الوقت وأنت على هذا الحال؟

قال شادي: لست أدري لأنّي لم أعد أهتمُّ بعدّ الأيام، إذ أصبح همّي الوحيد تأمين ما يقيني الموت جوعًا.

فقال فريد: لا بأس عليك. واطمئنّ فقد انتهت مدة عقابك ومعاناتك منذ الساعة. وغدًا ستذهب معي إلى مكتبي لتتسلم عملك فيه كمساعدٍ لي. ثم تستأجر شقة تليق بك وبمركزك الجديد. واترك الباقي عليَّ.

فقال شادي: بالله عليك، لا تجعلني أعيش ثانية بالأوهام.

فقال فريد: معاذ الله، فلست أنا من يتلاعب بأعصاب صديقٍ عزيزٍ عثرت عليه بعدما أضعته ردحًا من الزمن. بل أنا أعني ما أقول. كما أنّي لن أجد أكفأ وأصدق وأخلص منك ليعينني في إدارة شركتي. وبوجودك إلى جانبي

سنتمكن من زيادة نشاطها والتوسع في أعمالها. ولكن أين أوراقك وشهاداتك، وجواز سفرك، وبطاقة الإقامة و...؟

قال شادي: كلها محجوزة لدى إدارة الفندق حتى أسدد ما تبقى لهم بذمتي.

فقال فريد: هيا بنا إذًا لنحضرها، فتصحبها معك غدا إلى المكتب ليختار مسؤول المعاملات ما يلزم منها لإجراءات تغيير إقامتك.

وقبل دخولهما إلى الفندق كان فريدٌ قد دسَّ في يدِ شادي بضعة أوراق نقدية وضعها هذا الأخير في جيبه، ثم اقترب من مكتب الاستقبال، فادعى بأنه اضطر إلى الذهاب في رحلة عمل إلى شمال البلاد، ما اضطره للتأخر حتى اليوم. ثم أخرج النقود من جيبه وطلب كشف الحساب، وأوراقه وأمتعته. وبعدما تحقق من وجود جميع الأوراق والمستندات، سدد قيمة المتوجب مضيفًا إليها خمسين فرنكًا كإكرامية، كما أوحى له فريد.

وفي المنزل أرشده فريدٌ إلى إحدى غرف النوم، وقال له: خذ الآن قسطًا من الراحة بينما أذهب أنا إلى المكتب لقضاء عملٍ عاجل، وسأعود في نحو السابعة. وفي حال اضطررت إلى تغييرٍ ما فسأتصل بك هاتفيًا، قبل ذلك ببضع دقائق. فإن سمعت جرس الهاتف في ذلك الحين فلا تتردد في الإجابة.

وبعدما خرج فريدٌ من المنزل، استلقى شادي على السرير، ولكنّه لم يغمض له جفنٌ. فما حصل في يومه هذا لا يصدّق. وغاص في بحر من الأفكار. أيعقل أن يلتقيه فريدٌ بعد مضي نحوٍ من ربع قرنٍ على افتراقهما؟ وأين؟ على رصيف أحد شوارع مدينة تبعد آلاف الكيلومترات عن بلدهما؟ ولماذا لم يكن ذلك قبل لقائه سيلين؟ ولماذا قال فريد: «اترك الباقي عليّ»؟ وتشابكت في رأسه أسئلة عديدة لم

ينقذه منها سوى رنين جرس الهاتف، فلما تحقق من الوقت أجاب على فريد، الذي طلب منه أن يوافيه بسيارة أجرة إلى أحد المطاعم. وبينما هما يتناولان العشاء، كان فريدٌ يعطيه لمحة موجزة عن الشركة وأعمالها، وعن المهمات التي سيكون مسؤولا عنها في موقعه كمدير عام مساعد.

في صباح اليوم التالي ذهبا معًا إلى مكاتب الشركة، التي كانت تشغل كامل إحدى طبقات مبنًى من أضخم وأفخم مباني شارعٍ متفرعٍ من الشانزيليزيه. ومنذ اجتيازهما بابها الرئيسي وحتى غرفة مكتبه، كان فريدٌ يردّ على تحيات عشرات العاملين في الشركة كلٌّ بمفرده. وفور جلوسه إلى مكتبه استدعى سكرتيرته، وهي لبنانية تدعى سمر، وعرّفها بشادي وبموقعه المستحدث في الشركة، ثم طلب تنفيذ التالي:

1 – تجهيز الغرفة القريبة من مكتبه، والتي لم تزل غير مشغولة من أحد، كي تصبح مكتبًا لشادي.

2 – الاتصال بمكتب المبنى حيث نستضيف عادة بعضًا من عملائنا المهمّين، لتحضير شقة من غرفتين للنوم واستئجارها لمدة شهرين بدءًا من الآن لتكون سكنًا مؤقتا لشادي.

3- استدعاء كل من كلودين ومدير شؤون العاملين للحضور إلى مكتبي تباعًا بفارق ربع الساعة.

ولما حضرت كلودين، عرّفها بشادي وقال لها بأنها ستكون سكرتيرته الخاصة، ثم دعاها وشادي لمرافقته إلى غرفة مكتب هذا الأخير. وهناك طلب من شادي إعطاءها ملاحظاته وتعليماته في تنفيذ أي تغيير أو تبديل يزيده راحة نفسية. كما طلب منه أن يلتحق به بعد نصف الساعة.

أما مدير شؤون العاملين، فقال له فريدٌ: ابدأ اليوم بإجراءات تغيير إقامة شادي، وفور إتمامها، اعمل على

الحصول على تأشيرة دخول وإقامة لأفراد أسرته، من الحقّ ب«جمع الشمل». ولكن عليك ألا يعلم شادي، أو غيرُه، بهذا الأمر أبدًا إلا عندما أسمح أنا. ولذا ستطلب منه تزويدك بالمعلومات والأوراق الخاصة بكلٍّ منهم بحجة أن قد تطلبها السلطات الفرنسية.

ثم عاد فريدٌ واستدعى سمر، وأضاف على تعليماته السابقة بأن تتصل بالمكتب العقاري الذي تتعامل معه الشركة وتطلب منه البحث عن شقة فخمة وفسيحة تحتوي على أربع غرف للمنامة، في إحدى الدائرتين الثامنة أو السادسة عشر من مدينة باريس. كما أكد عليها أن يبقى هذا الأمر محصورًا بينها وبينه فقط.

***

سارت الأمور كما أراد لها فريدٌ، وانتقل شادي إلى شقته المؤقتة. وانغمس بأمور العمل في الشركة بما عرف عنه من إخلاص ونزاهة وسعة العلم، وما اكتسبه من الخبرة. فاستطاع أن يثبت جدارته في كل ما كلّفَ به، وفي مدة وجيزة جدًا.

وبعد نحو شهرٍ استدعاه فريدٌ وقال له: إنّي سأسافر بعد غدٍ إلى بيروت لبعض الشؤون الخاصة، فهل تحتاج إلى أيّ شيء أحضره لك من هناك؟

قال شادي: لا، شكرا.

لاحظ فريدٌ أن شادي يتجنب أن يريه وجهه كي لا يرى ما رسمه على ملامحه، اشتياقُه لأسرته. فاستدرك فريدٌ الأمر وقال له: هل تريد أن ترسل معي بعض المال إلى غادة؟

فقال شادي: أعتقد أنها، بكبريائها، لن تقبله.

قال فريد: أتريدني أن أجرب؟

قال شادي: بل لا أريد لك أن تتعرض لأي إحراج.

قال فريد: أعطني عنوان ورقم هاتف المنزل، ودعني أحاول.

فأخذ شادي قصاصة ورق وسطّر عليها ما طلب، وانصرف مسرعًا، والغصّة تمنعه من الكلام.

***

في بيروت، نزل فريدٌ في فندقٍ غير بعيد عن الشارع الذي يقع فيه مسكن عائلة شادي. وفور وُلُوجه إلى الغرفة، وكان الوقت بين الظهر والعصر، طلب من عاملة الهاتف أن توصله بغادة. ولما أجابت دار بينهما الحديث التالي:

قال: سيدة غادة؟

قالت: أجل، ومن أنت أيها السيد؟

قال: اسمي فريد، وكنت في طريقي من باريس إلى دبي مرورًا ببيروت. ولكنّ تأخر طائرتنا ببلوغ مطار بيروت قبل إقلاع طائرة دبي فرض عليّ أن أبيت ليلتي هذه هنا. وهذا ما سيسمح لي بزيارة شقيقتي، ولذا أرغب في أن أدخل عليها وبيدي قطعة ثيابٍ هدية، وكأنّي اشتريتها من باريس. وقد علمت بأنَّ لديكِ قطعًا فاخرة للبيع من أهم بيوت الأزياء الأوروبية، فهل بإمكاني أن آتي الآن لهذه الغاية؟

قالت: ولكنّي وحيدة الآن في المنزل، وأولادي ما زالوا في المدرسة. ولكن قلْ لي كيف علمت بأمري ما دمت تعيش في باريس؟

قال: استشرت أحد أصدقائي هنا، وبعدما سأل زوجته، أشارت بأنّي سأجد ضالتي لديك. وأنّها قد اشترت من مجموعتك قطعة جميلة جدًّا.

قالت: ومن هي؟

قال: هي صديقة جارتك منى. وبإمكانك أن تطلبي من السيدة منى أن تأتيكِ إبّان وجودي عندكِ، بذلك لن تحرجي.

قالت: لقد أفحمتني. فكم تحتاج من الوقت كي أعلمها بذلك؟

قال: عشر دقائق فالفندق الذي أنزل فيه قريبٌ جدًا من منزلك، حسب العنوان الذي أعطاني إياه صديقي.

قالت: جيد، سنكون أنا ومنى في انتظارك.

وصل فريدٌ في موعده، فدعته غادة إلى الدخول، وكانت منى قد سبقته. ومن قبيل إكرام الضيف، سألته غادة إن كان يرغب في فنجانٍ من القهوة اللبنانية.

فقال: إني مشتاقٌ جدًّا لواحد منها، ولكنّي لا أريد إزعاجك.

فقالت: ليس في الأمر أي إزعاج. وذهبت فورًا إلى المطبخ.

فسأل فريدٌ منى: أين زوجها، هل غيّبته هذه الحرب اللعينة؟

قالت: لا، بل هما منفصلان.

عادت غادة حاملة طبقًا عليه ثلاثة فناجين من القهوة. وبعدما تناول كلٌّ فنجانه، وأخذت غادة مقعدها، قال فريد: أرجو ألا أكون قد تسبّبت لك بأيّ إحراج. ولكن فقد قلت بأن أولادك في المدرسة، فلماذا قلتِ بأنك وحيدة؟ وأين زوجكِ؟

قالت: مسافر.

قال: وأين هو؟ في الخليج؟

قالت: لا في أوروبا.

قال: أهو حقًا مسافر أم أنتما منفصلان؟

فانتفضت غادة، قائلة: هل جئت إليّ لتشتري هدية لشقيقتكَ أم لتتدخل في شؤوني؟ أرجوك غادرني فورًا.

قال: أكرر اعتذاري. ولكن أتسمحين لي أن أكلمك بكل صراحة وأخوة؟

قالت: هاتِ ما عندك، ولكن أرجو أن تحافظ على أدبك ولا تتعاطى بشؤوني.

قال: إنّي واثقٌ بأنّ صديقتك السيدة منى، على اطلاعٍ تامٍ عما بينك وبين زوجك شادي، الذي أعرفه جيدًا وأعرف عنكما أكثر مما تظنّين. أنا اسمي فريد، ونحن صديقان منذ أيام الجامعة، وما أمر الهدية سوى ذريعةٍ لتسمحي لي بزيارتك.

فقاطعته قائلة: أرجوك لا أرغب في سماع أي شيء عنه.

قال: لو كنت مكاني في ذلك اليوم الذي التقيته فيه بعد ربع قرن من الفراق، لما قلت هذا.

فهدأت ولم تنبس ببنت شفة، وانتظرت أن يكمل كلامه. ولما طال صمته، قالت: وماذا أصابه؟ هل هو مريضٌ بداءٍ قاتل؟

قال: الآن تأكدت من أن حبك له لم يمت في قلبك. لا هو ليس مريضًا ولكن لو لم ألقَهُ صدفة لكان اليوم في عداد الأموات جوعًا.

فشهقت واغرورقت عيناها وسألت بصوت تكاد الغصّة تخنقه: لم أفهم، وعن أي جوعٍ تتحدث؟ ألم يذهب إلى تلك...

فقال: أكملي، الباريسية أليس كذلك؟

قالت: أجل.

قال: لا، فبعدما غادر بيروت كي يمنع ذلك الانفصال الذي كنت تصرّين عليه، استأجر غرفة في أحد فنادق الدرجة الرابعة. ولكن المال الذي كان بحوزته نفذ قبل أن يجد عملا ما، فطُرد من الفندق، بعدما حجزت أدارتُه على

جميع أمتعته بما فيها أوراقه وجواز سفره. وصار واحدًا من مشردي باريس ينام في محطات المترو...

فقاطعته، والدموع تجري أنهارًا على وجنتيها، وقالت: أرجوك لا تكمل. وانفجرت بالبكاء.

فقال: الآن عرفت عظمة الحب الذي جمع بينكما، كما وصفه لي. فأصدقيني القول: أما زلت تريدين الانفصال؟

قالت: لست أدري فأنا ضائعة تمامًا. وفي كلّ مرة يسألني عنه فيها أحد الأولاد أضطر إلى اختلاق الأكاذيب. لقد تعبت كثيرًا.

قال: أترغبين في أن تعودا إلى العيش معًا؟

فلم تجب. **فقال**: السكوت علامة القبول. فهل تفضلي أن يعود هو إلى العيش معكم هنا في ظلِّ هذه الأحداث البغيضة والميليشيات المأجورة؟ أو أن تذهبوا أنتم إليه لتعيشوا في باريس قريري العيون؟

فنظرت إليه بتعجبٍ وقالت: كيف نعيش في باريس وقد قلت للتوّ بأنه كاد أن يموت جوعًا لأنّه لم يجد عملا فيها؟

قال: هذا كان منذ نحو الشهر. أما الآن فقد تبدل حاله تمامًا وأموره تسير من حسنٍ إلى أحسن.

قالت: أرجوك أوضح.

قال: إنّه الآن مديرٌ عامٌ مساعد في إحدى أهم شركات الاستيراد والتصدير في باريس. وإنّي متأكدٌ من أنّ بإمكانكم العيش في شقة فخمة في أحد أرقى أحياء باريس. وعليكِ فقط أن تحددي يوم السفر فقط، حتى لو كان بعد غد.

صمتت غادة بعض الوقت من عظمة المفاجأة، ثم قالت: ومن، وماذا يضمن لي ذلك؟ بل ولماذا لم يكلمني هو؟

قال: بالله عليكِ لو حاول هو الاتصال بكِ فهل كنت على استعدادٍ لسماع صوته؟

قالت: صحيح، فقد أصبت.

قال: أمّا عمّن يضمن لك صحة كلامي، فهو أنا، لأني أنا صاحب تلك الشركة.

ثم قام عن كرسيه وأخرج من جيب سترته تأشيرات الدخول وأردف قائلا: وهذه التأشيرات ضمانة مادية وفعلية. وثقي جيدًا بأنّني جئت خصيصًا لهذه المهمة، وأنّ شادي ليس على علمٍ بما أسعى إليه، ولا بأمر التأشيرات، وكل ما يعلمه هو أنّي سأتصل بك لأسلمك ما أرسله لك من النقود، إن قبلتِ. فأخرج من جيبه رزمة من أوراق المائة فرنك، ومد يده ليسلمها إياها، وبعدما ترددت قليلًا، عادت وأخذتها. فأردف قائلًا: ولكنّي لن أعود إلى باريس إلا وأنتم جميعًا برفقتي. فاليوم هو الاثنين وأعتقد أن خمسة أيام، أي حتى نهاية هذا الأسبوع، هي مدة كافية، أليس كذلك؟ وهذه بطاقات السفر جاهزة تنتظر فقط تحديد التاريخ.

فقالت: لست أدري كيف كنت واثقًا إلى هذه الدرجة، من أن مسعاك سيكلّل بالنجاح؟

قال: ما سمعته من شادي عن حبّكما وطيبة قلبكِ. والآن أتسمحين لي أن أجري مكالمة هاتفية إلى باريس؟

قالت: أتريد أن تكلم شادي؟

قال: لا بل أرغب في أن يكون وصولُكم هدية مفاجئة له. إلا أن كنت ما زلت تشكين بكلامي أو كان لديك رأي آخر. وإن شئتِ سأطلب منه أن يتصل بك فيكون هذا بمثابة بداية عودة المياه بينكما إلى سابق عهدها. ولك أن تسأليه عما شئتِ. ولكن أرجو أن تسمحي لي بأن نكمل هذه المفاجأة.

قالت: لك ما تريد، وهذا وعد منّي. وبالنسبة لإجراء المكالمة فالهاتف أمامك.

قال: شكرا، ولكن أعتقد أن عليّ أن أطلبها عن طريق المركز أليس كذلك؟

قالت: أجل وهو على الرقم 100.

بعد دقائق رنَّ جرس الهاتف فرفع فريدٌ السماعة وبعدما حيّا سكرتيرته سمر جرى بينهما الحديث التالي:

قال: حوّلي المكالمة إلى مكتبي كي لا يسمع أحدٌ ما سأطلبه منك.

وبعد قليل قالت: نعم سيد فريد، أنا جاهزة.

قال: اطلبي من إدارة المبنى، حيث السكن المؤقت للسيد شادي، بأن يجهزوا له شقة من أربع غرف نوم لينتقل إليها يوم السبت القادم هو وجميع أفراد أسرته. ولكن من غير أن يعلم بذلك فتفشل المفاجأة. واحجزي لنا أيضًا، سيارة «ليموزين» تتسع لستة أشخاص، بما فيهم أنتِ، كي تُقِلّنا من المطار يوم السبت القادم، وسأعلمك غدًا أو بعده عن ساعة وصولنا. كذلك أريد سيارة لنقل الحقائب، ولترافقها كلودين ومعها شابٌ قوي البنية ليتولّى أمر الحقائب حتى داخل تلك الشقة. وأترك لكِ أن تفعلي ما من شأنه إنجاح هذه المفاجأة. وأين هو الآن؟

قالت: في مكتبه.

قال: إذًا دعيني أكلمه.

وبعد ثوانٍ، قال فريد: تحياتي يا صديقي العزيز. لقد زرت السيدة غادة وسلمتها الأمانة، وهي بخير. وكل شيء على ما يرام. وبإمكانك أيضًا مكالمتها ساعة تشاء.

قال شادي: أصحيح ما تقول يا صديقي؟ أم أنّك تمزح؟

قال فريد: لا يا صديقي، فما أقوله صحيحٌ، وما عليك سوى أن تجرب بنفسك.

قال شادي: إذًا اعذرني لأني سأنهي حديثنا كي أكلمها فورًا.

أقفل فريدٌ الهاتف، وقال لغادة، التي كانت مدهوشة، من وقع ما تسمعه: هل لديك جهازٌ آخر في غرفة النوم؟

قالت: أجل.

قال: إذًا حين تسمعي رنين الجرس اذهبي وكلميه واسأليه ما شئتِ. وسأنتظرك مع السيدة منى، إن كان هذا لا يزعجها.

فقالت منى: بالتأكيد لا يزعجني، بل على العكس فأنا في غاية السعادة.

لكن جرس الهاتف قطع كلامها. فأسرعت غادة إلى غرفتها لتجيب. وبعد ثوانٍ استأنفت منى حديثها قائلة: إنّ ما يجري أمامي يجعلني أشعر كأنني أشاهد فيلمًا سينمائيًا صاغَ قصته كاتب واسع الخيال. فرجلٌ، كشادي، يجمع إلى العلم والثقافة وقوة الاستيعاب، الصِّدقَ والنزاهةَ والإيمان الصادق، متمسكٌ بأحسن القيم، تضطرُّه أحداثٌ خارجة عن إرادته، أن يترك بلده وعائلته سعيًا وراء عمل يقيه وعائلته العوز والجوع. فلا يوفق في الحصول على ذلك العمل، ويقع في المحظور. وتتقطع به السبل حتى التشرد والتسول كي لا يموت جوعًا. إلى أن جمعك به القدر، لا لتنقذه من كل ذلك فقط، بل لتعيده إلى أفضل بكثيرٍ مما كان عليه في السابق. أليس هذا أمرٌ عجيبٌ يقتضي البحث في جميع جوانبه؟

قال فريدٌ: إنَّ ما تقولينه، سيدة منى، لُغْزٌ حيّر العلماء والفلاسفة منذ فجر التاريخ. وهذا في رأيي، من تدبير قوة خارقة تدبّرُ شؤون هذا الكون وترسم سبُل من وما فيه من مخلوقات حيّةٍ أو غير حيّة. وقد اختُلِفَ في تسميتها، أهي

القدر أم الله الخالق، جلَّ وعلا. وهنا يحضرني بيتٌ من الشعر يقول:

ما بين طرفة عين وانتباهتها* يغير الله من حال إلى حالِ.

وهنا عادت غادة، وابتسامة السعادة والبِشْرِ تغطي محياها، وكأنّ الدنيا لم تعد تسعها. ثم اقتربت من فريد وطبعت على جبينه قبلة أخوية، وقالت: لقد أخبرني شادي كلَّ شيء، سواء عن علاقتكما أم عمّا قدَّمت وتقدّم له. فبمثلك قالوا: «ربَّ أخٍ لم تلده أمك». واسمح لي من الآن أن أناديك: أخي. وعليه، فيا أخي فريد، أنا وأولادي طوع يديك حتى نصل إلى كنفِ، شادي، ربِّ أسرتنا. وشكرًا وألف شكر.

وما أن أنهت كلامها حتى دخل أولادها عائدين من المدرسة. فنادتهم قائلة: تعالَوا يا فلذات كبدي وحيّوا عمكم فريد، الذي جاء ينقذنا من ويلات هذه الحرب اللعينة. فهل ترغبون في أن نسافر قريبًا إلى باريس لنعيش مع والدكم الحبيب؟

فصاحوا بصوت واحد: أجل، أجل. واليوم إن أمكن.

فقدمتهم غادة لفريد فردًا فردًا: هذه سوسن ابنتنا البكر، وهذا فادي، ولي العهد، وهذه زينة، آخر العنقود.

فصافح كلٌّ منهم فريدا الذي قبَّل أيضًا أجبنتهم. وقال لهم: سنسافر يوم السبت القادم إن شاء الله. وسيكون دخولنا عليه أسعد مفاجأة. فماذا تقولون؟

فقالوا بصوتٍ واحد: سنكون في غاية السعادة.

وقبل أن يغادرهم فريدٌ طلب من غادة الحصول على الإفادات المدرسية اللازمة لتسجيلهم في المدارس الفرنسية. مضيفًا بأنّه سيبلغها غدًا بتفاصيل الرحلة. وبألا تتردد في أن تطلبَ منه، كونه أخاها، ما قد تحتاج إليه، سواء للسفر أم غيره.

***

وسارت الأمور كما رسم فريد. وصلوا إلى مطار باريس واستقبلوا كما طلب. وانطلق الموكب ليتوقف أمام مبنى فخمٍ في وسط العاصمة الفرنسية. فدعا فريد غادة وأولادها إلى النزول من «الليموزين» والدخول إلى المبنى بعدما سبقته سمر وأحضرت مفتاح الشقة. ولما دخلوها فوجئت غادة وأولادها بفساحتها وجمال وحداثة أثاثها. كذلك بالورود المتعددة الألوان تزين زواياها. وراحوا يستكشفون محتوياتها، برفقة سمر، واختار كلٌّ من الأولاد غرفته. ولما سألت غادة عن شادي أجابتها سمر بأن قد حان وقت وصوله. وأبلغتهم بأن عليه أن يقرع الباب لأنّ المفتاح لم يزل بحوزتها. ولذا طلبت من الأولاد أن يختبئوا خلف الباب عند سماعهم صوت ضرباته عليه، وأن تتولى غادة فتحه.

بعد بضع دقائق، قرع الباب، ففتحته غادة. فمن وقع المفاجأة ظنَّ أنه أخطأ الباب، ولكن لما رأى سمر بجانبها، لم يصدق عينيه وراح يتلفت يمنة ويسرة، إلى أن أعاده صوت غادة إلى رشده: حين سمعها تقول: شادي حبيبي لقد أضناني الشوق فتعال أضمّك إلى قلبي. وغرقا بعناقٍ طويل، ولكنّ تجمع الأولاد حوله كاد يطرحه أرضًا لو لم يلتقطوه مجتمعين. فوقف ينظر إلى كلٍّ منهم، غير مصدّقٍ أنّها الحقيقة، ثم يضمّه بين ذراعيه ويمطره بوابلٍ من القبل.

لم يشعر يومًا بالسعادة التي غمرته في ذلك اليوم. ثم التفت إلى صديقه فريد، ودموع الفرح تملأ مقلتيه: وقال: إنّ ما تحويها لغات الأرض من الكلام يعجز عن التعبير عما في قلبي وعقلي من آيات الشكر لك والامتنان والمحبة والتقدير. فبعدما أنقذتني من الضياع، أعدت لي سعادتي بهذه المفاجأة الرائعة، والآن فهمت ما قصدتَ في قولك: «اترك

الباقي عليَّ». وسأكون مدينا لك، بهذه الجمائل، ما دمتُ على قيد الحياة.

فقال فريد: يكفيني يا صديقي أنّنا عدنا والتقينا بعد طول غياب. وسنبقى معًا بإذنه تعالى حتى يفرقنا الموت.

ثم التفت إلى غادة، وقال لها: شادي جوهرة نادرة هنيئا لك به. وبعد غدٍ إن شاء الله تأتيكِ سمر لترافقكِ إلى الشقة التي ستكون مسكنكم الدائم، وتسلمك مفتاحها كي تتولّي بنفسك اختيار ما يناسبكم من الأثاث. وأظنّ بأنها ستعجبكِ، فهي أكبر من هذه وتقع في الدائرة السادسة عشر على ما أعتقد، أليس كذلك يا سمر؟ فأشارت هذه برأسها، بالإيجاب.

ثم التفت إلى صديقه شادي وقال: اعذرني يا أخي وصديقي لأنّي لم أترك لك خيارًا في هذا أيضًا، ولكن يبقى لك الحق، في أن تذهب معهما لتوقيع عقد الإيجار. والآن اسمحوا لنا أن نغادركم أنا ومن رافقنا، راجين أن يكون في الأيام والسنوات القادمة ما يعوضكم عن كل ما سبّبته لكم جميعًا تلك الحرب اللعينة من المآسي وغيرها.

قِطّةٌ أليفة انقلبت نَمِرَةً شرسةً

كانت جُمانة تنتظر بدء محاكمتها، قابعة على مقعدٍ في القفص المعدّ، في قاعة المحكمة، للمتهمين المسجونين إبّان المحاكمة. ولما أعلن القاضي بدء النظر في قضيتها، انتصبت على قدميها، متجهة نحوه، مرفوعة الرأس، وقالت: ها أنا ذا يا سيدي القاضي.

أجال القاضي ناظريه في قامتها، وأنعم النظر في تقاسيم وجهها، ثم قال:

أنّى لفتاةٍ لها حسنك وجمالك ورقّة جسدِكِ أن تقتل رجلًا تكاد سنوات عمره تقارب سنَّ والدكِ؟

قالت: عندما يحاصِر الخطرُ القِطّة الأليفة، تنقلب نَمِرةً شرسة.

فُوجِئ القاضي بكلامها هذا، ولكنه لم يعلق عليه، بل قال: أفهم أنّكِ تعترفين بأنكِ قد قتلتِ المغدورَ مسعودًا؟

قالت: بل دناءته هي التي قتلته، مع أنّي كنت أتمنى أن أقتله بيديَّ هاتين.

قال: ولكن حسبما جاء في التحقيق، فإنّه قد قتل على يديكِ، فلماذا؟

قالت: لقد قتلني، بعدما قتل أخي حبيبي الذي يصغرني بأربع سنوات.

قال: وكيف تقولين إنه قتلكِ وأنت تقفين الآن أمامي بجسدٍ وصحةٍ كاملين؟

قالت: وهل يجب أن يكون المقتول دومًا، ميتًا؟

قال: أهي نظرية فلسفيةٌ جديدةٌ؟ أم ماذا؟

قالت: ألا يجوز أن يكون من قُتِلَ مستقبلهُ بحكمِ الميت؟

وبعدما أعاد النظر في أوراق القضية، قال القاضي: تُبين الأوراق أنكِ لم تبلغي بعد السابعة عشرة بينما أراكِ تنطقين بكلامٍ من عركها الدهر. ولذا أريد أن أعرف دقائق وتفاصيل ما أوصلكِ إلى قتل رجلٍ جاوزت سنُّه الأربعين، ولأن من واجبي استجلاءَ الحقيقة كاملة كي أتمكّن من تطبيق القوانين وأنا مرتاح الضمير؛ ولأنّ لديَّ حدسًا بأنّ في قصتكِ أمورًا قد لا يجوز كشفُها أمام الآخرين؛ فسأبدّل الجلسات من علنيّة إلى سريّة، يقتصر حضورها، على كلٍّ منكِ ووكيلتكِ ووكيل الادِّعاء فقط، بالإضافة إلينا أنا وكاتب المحكمة.

ثم أصدر قراره حسب الأصول، وحدّد موعدًا للجلسة القادمة، في مكتبه ضمانًا للسريّة.

في الموعد المحدّد، أحضر أحدُ رجال الأمن، جمانةَ إلى مكتب القاضي. ولمّا سُمح لهما بالدخول أمر القاضي الجنديَّ بأن يفكَّ قيدها، وأن يبقى في الخارج أمام الباب لإبعاد من يحاول الاقتراب من الفضوليين. وبذلك أكتمل عقد من قرر القاضي حضورهم، وهم بالإضافة إليه وإلى الكاتب وجمانة وكيلتها المحامية سوسن، المكلّفة بالدفاع عنها من قبل جمعية تهتمُّ بشؤون الأحداث، والمحامي يوسف، وكيل الادّعاء، المكلّف من قبل نقابة المحامين.

وبعد فتح محضر الجلسة حسب الأصول القانونية، قال القاضي لجمانة: عليكِ الآن أن تسردي لنا حكايتك بكامل تفاصيلها.

قالت: ولكن يا سيدي القاضي، قد يستغرق هذا ساعاتٍ عديدةً.

قال: لا بأس، نجعلها على عدة جلسات إن لزم الأمر. وبإمكانك، أيضًا أن تقعدي على ذلك الكرسي.

قالت: شكرًا سيدي القاضي. تبدأ حكايتي مع مسعود منذ كنت في الثامنة من العمر، وكان المرحوم أخي في الرابعة. لقد ولدتُ بعد نحوٍ من ست سنوات من اندلاع تلك الحرب الأهلية اللعينة، التي ضربت لبنان، والتي ما زلنا نعاني من ذيولها. وكنّا، أنا وأخي، نعيش تحت جناحي والدَينا في منزل مستأجرٍ في إحدى قرى الجبل. وقد كانت هذه القرية بعيدة بعض الشيء عن محاور القتال، مما جعل عيشتنا هادئة هانئة قياسًا بما كان يعانيه الكثير من قرى الجبل الأخرى. وكان والدانا يعملان أقصى جهدهما ليؤمّنا لنا أفضل ما يمكنهما من سبل العيش، على الرُّغم من أنّهما لم يكونا ميسوري الحال. وكانا يغمراننا بمحبتهما وحنانهما. وقد علمت منهما أنهما انتقلا إلى تلك القرية بعد زواجهما بمدة وجيزة، هربًا من جحيم القذائف التي هجّرت جميع أبناء قريتهما، وقد غادرَ معظمهم لبنان وانتشروا في أرجاء المعمورة، ومنهم عمّي الذي انقطعت أخباره عن والدي؛ الذي سمعته يومًا، من خلف الباب، يشكو لوالدتي سوء حظه، قائلا: لست أدري لماذا لم نهجرْ هذا البلد كما فعل أخي الوحيدُ وغيرُه من أقاربنا وأبناء قريتنا. وكم أتمنى أن أعرف أين هو الآن، كي أراسله لعلّه يساعدنا في اللحاق به. وكل ما أعرف أنه يمّم وجهه، يومها، شطر كندا. ففي أيّ مدينة هو لا علم لديّ؟ كما لا أعلم إن كان لم يزل فيها أم غادرها إلى دولة أخرى. وأنا متأكدٌ أنّه بدوره لا يعلم عنّا أيَّ شيء مذ تركنا قريتنا، وإلا لكان عمل على الاتصال بي على الرُّغم من انقطاع الاتصالات بين لبنان وسائر دول العالم.

أما مسعود، فقد كان يزور والدِي بين الحين والآخر. إذ كان يعيش أيضًا في القرية عينها حيث كنّا. وكان يدّعي بأنّه من أقارب والدي. وبما أنّ هذا الأمر لم يكن من اهتمامات طفولتي فلم أعرْهِ أيّ التفاتة.

إلى أن جاء يومٌ فقدَ فيه المتقاتلون عقولهم وأحاسيسهم، وراحت القذائف تتساقط كالمطر في معظم أنحاء الجبل، بما فيها قريتنا. فاختبأ سكانها كلٌ في منزله، ينتظر الفرج من عند الله. واختار والدي إحدى غرف المنزل، حيث اختبأنا جميعنا، ظنًّا منه أنّها الأكثرُ حماية وأمانًا من سائر الغرف. جلسنا أنا وأخي، متلاصقين، على فراشٍ وضعته والدتي على أرض الغرفة، مع بعضِ العابه آملةً في أن تخفف عنه شدّة الإحساس بالرعب.

مرّتْ ساعاتٌ ونحن على هذه الحال. فكان أن طلبت مني والدتي أن أذهب إلى المطبخ لإعادة ملء إبريق الماء. فقمت مسرعة لتلبية طلبها. وبينما كنت أقوم بمهمتي، سمعت دويَّ انفجارٍ يصمُّ الآذان، رافقه صوت ارتطام جسمٍ عظيمٍ بالمنزل. فرميت ما كان في يدي، وتوجهت مسرعة إلى الغرفة، مذعورة مرعوبة، كي أحتمي بذراعي والدي وصدره طلبًا للأمان. وما أن وصلت أمام باب الغرفة، حتى رأيت غمامةً من الغبار تنبعث من بابها. ولما دخلت رأيت المصاب الجلل. والديَّ مطروحان أرضًا لا حراك في أيٍّ من أعضائهما، يعلو جزءًا من جسديهما، أكوامٌ من الحجارة والتراب. رحت أناديهما بأعلى صوتي، ولكن لا حياة لمن كنت أنادي. ثم سمعت أنين موجوعٍ، فالتفت نحوه، وإذا بأخي ملقًى أرضًا في الجانب الآخر من الغرفة، يئنُّ ولا يستطيع الحركة. اقتربت منه وكلمته تكرارا ولكنه لم يجب. حاولت مساعدته على الوقوف، ولكن رجليه لم تعد لهما

القوة على حمله. فلم يبقَ أمامي سوى الصراخ ومناداة من بإمكانه سماعي لتلبية استغاثتي في مدّ يد العون. ولكن أصوات القذائف وغزارتها حرمتاني من أيّ معين.

وما كادت تنهي جملتها الأخيرة، حتى بدأ الكلام يتقطع ويتشابك في حنجرتها، إلى أن خنقت الدموعُ وغصّةُ الحزن صوتها، وبدت عليها علامات الانهيار. فأومأت وكيلتها، المحامية سوسن، إلى القاضي تستسمحه الاهتمام بها، فأشار بالموافقة. فسارعت إليها وضمتها إلى صدرها وراحت تمسح بحنان شعرها ووجهها، إلى أن استعادت هدوءها.

عند ذلك قال القاضي: سنكتفي اليوم بهذا القدر، لنتابع في الجلسة القادمة. وأمر بإقفال المحضر، بعد أن حدّد موعد الجلسة القادمة.

ولكن سوسن استأذنته في سؤال جمانة، قبل أن يستدعي الجندي لإعادتها إلى السجن، فلم يمانع. فسألتها عن اسم عمّها. فأجابتها بأن اسمه عامر. فشكرتها وشكرت القاضي، وانفضَّ الجمع.

***

وبعد أن اكتمل عقد الحضور، في الجلسة التالية وفُتِح المحضر، قال القاضي لجمانة: سيتلو عليكِ الكاتب الفقرة الأخيرة مما قلتِهِ في الجلسة السّابقة لتُكمِلي تَبيان ما حدث بعد ذلك.

فقالت: سمعًا وطاعة. وبعدما استمعت إلى ما تلاه الكاتب، راحت تكمل سرد قصتها، قائلة:

لمّا لم يستجب أحدٌ لاستغاثتي، جلست بجانب أخي، تارة أمسح وجهه ورأسه، وأخرى أخاطبه أملًا في أن ينطقَ ولو بكلمة واحدة. ولكن محاولاتي ذهبت أدراج الرياح. وبقينا كذلك حتى توقفت أصوات القذائف، وذلك بعد وقتٍ حسبته

دهرًا. وبعد قليل صرت أسمع، من بعيد، أصوات أبواق سيارات الإسعاف. ثم دخل علينا جارنا شريف وزوجته منى. وما أن رأى حال والديَّ حتى طلب من زوجته أن تخرج لتستدعي أيّا من الجيران لمساعدته. وسألني عن أخي، فقلت بأنه مصابٌ ولا يستطيع الحركة ولا حتى النطق. فقال: يجب علينا عدم تحريكه إلى أن يأتي رجال الإسعاف لنقله كما ينبغي إلى المستشفى.

ثم قال: كنتُ أرى رجلا يأتي دومًا لزيارتكم، وهو من سكان القرية، ولكنّي لا أذكر اسمه.

فقلت: أتعني «عمو» مسعود؟

قال: أجل هو.

وخرج فورا، فسمعته ينادي أحد أبنائه، ثم يرسله في طلبه. ثم عاود الدخول ليبدأ برفع الأنقاض عن جثتي والديَّ. وبعد قليل عادت زوجته ومعها ثلاثة رجال، بأيديهم بعض الأدوات اللازمة لرفع الحطام، وتوجّهوا فورًا لمساعدته. ثم عاد وطلب من زوجته الخروج لإرسال من يُعلم سيارات الإسعاف بحالنا.

وبعد قليل وصل مسعودٌ ثم تبعه رجال الإسعاف. فاقترب مني أحدهم وسألني إن كنت مصابة، فقلت: بل أخي هو المصاب ولا يقوى على الحركة أو النطق، ووالدَيَّ تحت الأنقاض كما ترى. فقام اثنان منهم، بنقل أخي بكل عناية، إلى سيارتهم، وقال لي مسعود بأنه سيرافقهم. وطلب من جارتنا، منى، أن تبقيني عندها ريثما يعود. ولما انتهى الباقون من رفع الأنقاض، قام جارنا شريف بتفتيش جيوب والدي حيث عثر فيها على محفظته وبعض النقود والأوراق التي قد تكون مهمّة. ثم سلّمني إياها وقال بأن عليَّ الاحتفاظ بها، بعدما أبقى معه بطاقة هويته لإجراء المعاملات

الرسمية. ثم نقل باقي رجال الإسعاف، الجثتين بعدما، سجلوا اسميهما، وأبلغوا شريفا باسم المستشفى حيثُ سينقلونهما. وبعد ذلك اصطحبتني جارتنا منى إلى منزلهم، وقام شريفٌ بإقفال باب المنزل الذي كانت قد فتحته قوة القذيفة.

وبعد ما يزيد عن الساعتين، عاد مسعودٌ وحيدًا، وأخبرنا بأن شقيقي سيبقى في المستشفى لاستكمال الفحوص والعلاج، ولا يعلم مدّة بقائه، وأنّه سيذهب في اليوم التالي لزيارته والاطلاع على وضعه. ثم قال لي ولجارنا بأنّه سيخصص لنا، أنا وأخي، غرفة في منزله لنعيش معه، إذ إنّه يعيش فيه وحيدًا. وبالتأكيد، لم يكن لديّ أيّ خيارٍ آخر، فأنّى لطفلة، في مثل ما كنت عليه، لا أهل لها ولا أقارب، أن يكون لها إرادة في تحديد مصيرها؟ ثم سألني عمّا إذا كان مفتاح باب منزلنا بحوزتي، لأنه رآه مقفلا. فقال له شريف بأنه هو الذي أقفله، ثم أعطاه المفتاح. فانصرفنا بعدما شكره.

وقبل أن نتوجه إلى سيارته، قال لي بأن علينا، قبل الذهاب إلى منزله، أن نتفقد منزلنا ونحضر منه ما يلزمنا من الثياب والحوائج بالإضافة إلى ما قد نجده من أشياء ثمينة، وأوراق ومستندات مهمّة، وخاصة بطاقات الهوية. فقلت له حينها بأن شريفًا احتفظ ببطاقة والدي لإجراء المعاملات. فقال: إذًا سنعود إليه بعد انتهائنا من البحث في البيت.

وفي المنزل، وجدنا البطاقات الخاصة بي وبأخي وبوالدتي، كذلك بضع قطع ذهبية، هي مجوهرات والدتي، وكميةً من النقود، وبعضَ الأوراق. وقد وضعها مسعود جميعها في جيوبه. ولم أرَ، فيما بعد، من ذلك كله سوى بطاقاتِ الهوية. كذلك حمل كيسًا مليئا بما جمعه من ثيابنا أنا

وأخي. وبعدما وضعه في سيارته، عدنا إلى منزل جارنا شريف. وبعد التشاور، توافقا على أن يقوم شريفٌ بإجراء المعاملات اللازمة لإحضار الجثتين من المستشفى، لمواراتهما الثرى، بينما يكون مسعود قد ذهب للاطمئنان عن حال أخي. كما أعطاه هوية والدتي، لزوم المعاملات الرسمية.

لا أخفي عليكم بأنني، على الرغم من هول المصيبة، ومن أنّ دموعي لم تنقطع عن السيلان على وجنتي مصحوبة بأنيني وتنهداتي، فقد شعرت ببعض الأمان، إذ أمنت بأننا لن نصبح، أنا وشقيقي، وحيدين مشردين في الشوارع. ولكنني، وبعد ما تسبّب لي، فيما بعد، من الأذى ومن سوء المعاملة لنا، أنا وأخي، تمنيت كثيرا لو سُلِّمنا يومها إلى أحد الملاجئ أو الجمعيات.

وفي اليوم التالي، ذهب مسعود باكرًا إلى المستشفى حيث كان أخي. ولما عاد، وكنت قد استيقظت على سماع صوت فتح باب المنزل، أخبرني بأن وضعه مستقرٌ، وأنّه سيبقى في المستشفى يومًا أو يومين آخرين. وأنّ كلفة علاجه ستكون على عاتق وزارة الصحة، أسوة بغيره من الذين أصيبوا من جراء ما حدث بالأمس. ثم ذهبنا معًا إلى منزل جارنا شريف، كما اتفقا في اليوم السابق، للقيام بإجراءات الدفن. فإذا بمعظم أهل القرية، رجالا ونساء، وبينهم أحد رجال الدين، مجتمعين في باحة منزلنا. ولمّا وصلنا هبَّ الجميع لمواساتنا. ثم قال شريفٌ لمسعود بأنّه أنجز جميع الأوراق اللازمة، ويبقى عليهما الذهاب لإحضار الجثتين. فقال أبناء القرية بأنهم سيلاقونهما بسياراتهم أمام مدخل المستشفى ليعود الجميع بموكب يليق بزوجين عاشا بينهم، كعائلة منهم، منذ أن هجّرتهما الحرب من قريتهما، ولم يرَوا

منهما سوى المحبة والتقدير والاحترام. كما أصرّوا على تكريمهما بإقامة مأتم لائق. كل هذا وأنا ملتصقة بمسعود وممسكة بثيابه، من دون أن أكفَّ لحظة عن البكاء. وكان هو من وقتٍ لآخر يربت على كتفيَّ، أو يمسح رأسي، بلمسات رقيقة من يده، ما كان يزيدني شعورًا بالأمان. ولكنّه، وعلى الرُّغم من إلحاحي، لم يسمح لي بالذهاب مع الجمع إلى المقابر، بل سلمني إلى جارتنا منى، التي بقيتُ ملتصقةً بها وأتبعها كظلها، إلى أن عاد بعد إقامة الصلاة، وانتهاء أعمال الدفن، وانصراف الجميع. فأمسك بيدي وذهبنا إلى منزله.

وبعدما بلغناه، قال لي: إنّ علينا أن نسلّم المنزل إلى صاحبه ما دمتما ستقيمان في منزلي. ولذا عليّ أن أذهب للتباحث مع صاحبه في هذا الأمر.

فقلت: دعني أذهب معك، لأنني أخاف أن أبقى وحيدة، إذ لم يحصل أن تركتني والدتي في المنزل وحيدة ولو لدقائق معدودات.

قال: إن عليكِ أن تعتادي ذلك منذ الآن، فعملي أيضًا يفرض عليّ أن أغادر البيت وحيدًا ولساعات، أو ليومٍ كامل أحيانًا.

وعلى الرُّغم من تكرار رجائي، فقد دفعني إلى الداخل وأقفل الباب وأنا أبكي.

بعد وقت، شعرته سنةً، عاد حاملا كيسًا مليئًا بأشياء أحضرها من منزلنا، وقال بأنه اتفق مع صاحب المنزل أن يسلّمه إيّاه بعد أسبوع ريثما يكون قد أخلاه بالكامل. وأضاف بأنه سينقل بعض ما قد نحتاج إليه من موجوداته التي لم تتأذّ من فعل القذيفة، وسيتخلص من الباقي. وقد علمت منه بعد

بضع سنوات، وبزلة من لسانه، أنه باع ذلك الباقي، كما باع مجوهرات والدتي، كي ينفق علينا، حسب ادعائه.

وفي صباح اليوم التالي، تركني أيضًا وحيدة، متجاهلا رجائي بأن يصحبني، وذهب إلى المستشفى. وبعد ما يزيد عن الساعة، عاد حاملا أخي بين يديه، ووضعه على السرير، ثم دعاني إلى خارج الغرفة، وأعلمني بأنه لن يستطيع السير أو حتى الوقوف، لأن الإصابة آذت عموده الفقري ما أدى إلى الشلل الكامل في رجليه، أما النُطق فيلزمه وقتٌ غير معروفةٍ مدته. فقلت له بأنني سأنذر حياتي للاعتناء به مهما كلفني الأمر.

ومنذ ذلك اليوم، التزمت المنزل ولم أعد أذهب إلى المدرسة، وحملت مسؤولية الاهتمام بأخي وبشؤون المنزل بعدما درّبني مسعودٌ على ذلك. وكان يذهب بشكل شبه يوميّ إلى بيروت، وكان أحيانًا يبيت ليلة أو ليلتين فيها، ونحن وحيدين في المنزل، ولم أترك أخي وحيدا في المنزل، مرة واحدة. وبقينا على هذه الحال إلى أن قال لي يومًا، بعد نحو السنتين، بأنّ الحرب قد انتهت، وأن عمله يفرض عليه الانتقال للعيش في بيروت. ولم أعرف يومًا شيئًا ما عن عمله هذا.

فقاطعها القاضي قائلا: سنكتفي اليوم بهذا القدر، لنكمل في الجلسة القادمة.

***

بعد افتتاح الجلسة التالية، وبناء على أمر القاضي، كما في السابق، راحت جمانة تكمل قصتها، قائلة:

كان المنزل في بيروت شبيهًا بالسجن. فإذا كنتُ في القرية أستطيع الخروج، لدقائق معدودات، إلى باحة الدار لنشر الغسيل أو لريِّ الزهور، ففي بيروت لم يكن أمامي

سوى شرفةٍ صغيرةٍ تطلّ على شارع صغير غير نافذ، تقوم على جانبيه مبانٍ قديمةٌ متلاصقةٌ، جدرانها لم تعرف الطلاء منذ زمنٍ بعيد، لتتحول ألوانها إلى الاسوداد. وما زادني عزلة هو ما زرعه مسعودٌ في نفسي من الخوف من أرذال المدينة وخاطفي الأطفال... بالإضافة إلى واجبي في الاعتناء بأخي، وما فرضه عليّ هو، من واجب القيام بأعمال المنزل من طبخٍ وتنظيف وغيره. وكان هو يُحضر بنفسه كلّ ما نحتاج إليه من مأكل وملبس. ولذا لم تتخطَ قدماي عتبة المنزل، قبل وفاة شقيقي، سوى مرتين، كانت الأولى حين أخذناه إلى الطبيب بناء على إلحاحي المتكرر لما يزيد عن الأسبوعين، والثانية، بعدما لاحظت أن جسده يضمر يومًا بعد يوم، ولكنّه لم يستجب لرجائي المتكرر، إلا بعد فوات الأوان، فحملناه إلى المستشفى. ولمّا وصلنا أمام بابه، لاحظت أنّ نفَسَه بدأ يتقطع. وفور دخولنا، عاينه الطبيب، فنظر إلينا وقال: لقد تأخرتما كثيرًا في إحضاره، لقد فارق الحياة.

فغصّت حنجرة جمانة، بالدمع، وتوقفت عن الكلام. وبعدما مسحت دموعها واستعادت قدرتها على النطق، **قالت**: ألم أقل لك يا سيدي القاضي بأنه قتل شقيقي؟ لقد كنت أرى التأفُّف يبدو بوضوح على وجهه، كلما طلبت منه شيئًا يحتاجه ذلك الطفل العاجز عن الحركة والكلام، هذا إلى جانب المماطلة والتسويف في الاستجابة إلى طلباتي بعرضه على الأطباء. أمّا بعد وفاته فقد شعرت من قسمات وجهه وكأنّ حملا ثقيلا قد أزيح عن كاهله.

فقاطعها القاضي سائلا: كم كان قد مضى من الزمن بعد حادثة تلك القذيفة؟

فأجابت: ما يزيد قليلا عن الأربع سنوات.

قال: أي أنكِ كنت قد بلغتِ الثانية عشرة.
قالت: نعم.
قال: وكيف كان يعاملكِ، قبل وفاة شقيقكِ وبعدها؟
قالت: في البدء، كان يظهر لي العطف أحيانًا، وأحيانًا يقسو عليَّ ويؤنبني إذا ما أخطأت. وإن لم يكن الطبخ يوافق ذوقه، أو أن نظافة المنزل لم تعجبه، كان يستشيط غضبًا ويروح يكيل لي الإهانات، أو كان يصفعني، أو يضربني على ظهري. ولكنّه كان كلما عاد إلى المنزل كان يضمّني ويقبّل وجنتيّ، فكنت أشعر حينها ببعض الحنان. أما بعد وفاة أخي فصار يكتفي ببعض الإهانات وكلام التمنين، الذي كان يسمعني إيّاه أيضًا، قبل وفاة أخي؛ كأن يقول: لولايّ لكنتما مشرّدَين في الشوارع، تسألين الصدقة من المارّة... إلى ما شابهه.

ولكنّه لم ينسَ يومًا أن يضمّني ويقبّلني كلما عاد إلى المنزل. أمّا حينما كنت أطلب منه أن يدخلني إحدى المدارس، فكان يوهمني بأنَّ من المستحيل أن تقبلني أيّ مدرسة بعدما جاوزت الثانية عشرة. وأحيانًا كان يعدني بأن يبحث عن واحدة قد تقبلني. ولكنّي متأكدة من أنه لم يفعل.

ومع مرور الأيام بدأت تظهر على جسدي ظواهر اكتمال الأنوثة. فأصبح يمرّر يديه على رقبتي وكتفيّ، ويمسح وجنتيّ. كنت في البدء أظنُّ أنّها من قبيل المحبة الأبويّة. ثم راح يشتري لي الثياب التي تكشف عن أجزاء كثيرة من كتفيَّ وظهري وصدري وفخذيَّ، ويوهمني بأنها ستخفّف عني الشعور بحرارة الصيف. ثم صارت لمسات يديه تقتصر على ما انكشف من جسدي.

لم أكن أفهم لماذا كان يفعل ذلك، وأنا التي يَتّمتني تلك الحرب اللعينة، طفلةً لا تفقه شيئًا من أمور الدنيا، ليس لها

أمٌّ، أو صديقة، تنصح لها، أو تشرح لها تطورات الأجساد كلّما مرت عليها السنون. وبعد مدة شعرت بالألم في بطني ورأيت دمًا على ثيابي الداخلية، فاضطررت إلى سؤاله أن يصحبني إلى الطبيب. فقال بأن هذا أمرٌ طبيعيٌّ تمرُّ به كلُّ فتاةٍ في مثل سنّي، ويسمّى «الدورة الشهرية»، لأنّه يحصل في كل شهر مرة. وأضاف بأنه سيُحضر لي دواءً يجب أن أبتلع منه حبة واحدة كلَّ مساء، ومن دون انقطاع.

فقاطعتها سوسن، طالبة الإذن من القاضي بتوجيه سؤال إلى جمانة. فلما سمح لها بذلك، قالت لها:

أتعرفين اسم هذا الدواء؟

قالت جمانة: كيف لفتاة أمية، لا تقرأ ولا تكتب، أن تعرف اسم دواء مكتوب بالأجنبية؟

قالت سوسن: إذا رأيت علبته فهل تتعرّفين عليه؟

قالت جمانة: أجل.

فأخرجت سوسن من حقيبتها علبة وعرضتها على جمانة، وسألتها: ماذا تقولين بهذه؟

قالت جمانة: أجل، أجل هذه هي علبته.

فقالت سوسن: سيدي القاضي، إنها علبة دواء لمنع الحمل.

فاعترض، المحامي يوسف، وكيل الادّعاء، سائلًا القاضي: أرجو من الزميلة الكريمة أن توضّح لنا كيف حصلت على هذه العلبة؟

فطلب القاضي من سوسن الإجابة على سؤال يوسف.

فقالت: سيدي القاضي، هذه العلبة قد اشتريتها بنفسي من إحدى الصيدليات.

قال: ولكن كيف حصلتِ إذًا على اسم الدواء؟

قالت: إبّان التحقيق الأولي طلبت السماح لي بمعاينة الشقة. فوافق الضابط المكلّف، على طلبي، على أن أكون برفقة رجلَي أمن. ومن جملة ما رأيت، إبّان المعاينة، كانت علبة من هذا الدواء بين حاجات جمانة. وقد طلبت منهما إثبات ذلك في المحضر وضمّ العلبة إلى أوراق التحقيق. ويمكنكم التأكد من كلامي هذا من ملف التحقيق.

فتوجّه القاضي إلى جمانة، وقال لها: أكملي كلامكِ.

فقالت: استمرّ بنا الحال على ما وصفت، إلى أن عاد، مساء أحد الأيام، حاملًا بيده زجاجة لم أرَ مثلها من قبل، وقالب حلوى وزجاجة عصير وبعض المأكولات. وقال لي: إنك اليوم قد بلغتِ السادسة عشرة، وهذا عمرٌ مهمٌّ في أعمار الفتيات، ولذا سنحتفل بهذه المناسبة. فسررت جدًّا بالتفاتته تلك. ثم جلسنا إلى طاولة صغيرة في غرفة الجلوس، بعدما أحضرت قدحين، كما طلب. فملأهما بمزيجٍ من العصير ومن محتوى تلك الزجاجة. وبعد قليلٍ من ابتدائنا بالأكل والشرب، شعرت بدوارٍ ونعاسٍ ثقيل، ولم أعد أذكر شيئًا بعد ذلك، إلى أن استيقظت صباح اليوم التالي. وإذا بي في الفراش عارية تمامًا. فسحبت الشرشف لأستتر به، وإذا بي أرى عليه بقعة دمٍ. فارتديت ثيابي وخرجت من غرفتي أبحث عنه، فلم أجده. ولما عاد في المساء، بادرته بسؤالي، عمّا حدث.

فقال: لقد فوجئتُ بك تقولين بأن الحرَّ شديدٌ، ثم رحتِ تخلعين ثيابك قطعةً بعد أخرى، وأنت تردّدين كلمات التذمر من شدّة الحرّ، ثم غادرتِ غرفة الجلوس، ودخلتِ إلى غرفتك وأنت تقولين بأن حرارة الجوّ فيها أقلُّ منها في غرفة الجلوس.

فقلت له: ومن أين جاء الدّمُ على الشرشف الذي غسلتُه بالأمسِ صباحًا ولم يقربْه أحدٌ؟

قال: أنسيتِ أنّكِ تنزفين مرّة في كلّ شهرٍ بسبب «الدورة الشهرية»؟

وعلى الرّغم من أنّه لم يعد يُحضر سوى زجاجات العصير، الذي اعتدنا أن نشربه بشكلٍ شبه يومي، فقد تكرّر أن وجدت نفسي في وضع مماثل في الفراش، كان أولها بعد نحو أسبوعين، ثم توالى ذلك بضع مرات أُخر. وفي كلِّ مرة كان يكرّر أن السبب هو شدة الحرّ. إلى أن رأيت يده مرة فوق كأسي، وكأنه يدسُّ شيئًا فيها. ومن دون أن يلحظ، تمكنت من تبديل الكأسين. وبعد بضع دقائق رأيته وقد غلبه النعاس. فتحقّق ظنّي.

حينها قاطعتها سوسن، ولما سمح لها القاضي بالكلام، أخرجت من حقيبتها علبة دواء ورفعتها أمامه، وقالت: سيدي القاضي، إبّان زيارتي للشقة، كما سبق وبيّنت، وجدت في غرفته علبة مماثلة لهذه، بقي فيها بضع حبات من عشرين، أصل محتواها. وقد قرأت عليها أنها من النوع المنوّم السريع المفعول. وهذا مُثبتٌ أيضًا، بناء على طلبي، في محضر تلك الزيارة.

فقال يوسف: هل لي، يا سيدي القاضي، أن أطّلع على هذه العلبة؟

فأشار القاضي إلى سوسن أن تجيبه على سؤاله. فناولته إيّاها. وراح يقرأ ما دُوّن عليها، ثم قال: سيّدي القاضي، هذا الدواء لا يُباع إلّا بوصفة طبّيّة، فكيف حصلت عليه الزميلة الكريمة؟

فأجابت سوسن: أرجو من الزميل الكريم أن يفتح العلبة، ليتحقق من أنها فارغة. وليطمئنّ قلبه، أعلمه بأنّني استعرتها

من الصيدليّة القريبة من قصر العدل هنا، وبإمكانه سؤال الصيدليّ الذي تعهّدت له بإعادتها بعد انتهاء الجلسة.

فسكت يوسف، ولم يعلّق القاضي، بل نظر إلى ساعته، وقال: كفانا اليوم هذا القدر. ورفع الجلسة بعد أن حدّد تاريخ الجلسة اللاحقة.

***

وفي الجلسة التالية، أمر القاضي جمانة بأن تكمل من حيث انتهت في الجلسة السابقة.

فقالت: وبعدما استيقظ مسعودٌ في صباح اليوم التالي، واجهته بما حصل. وقلت له: لقد استغللت جهلي وصغر سنِّي وضعفي ويتمي وبراءتي وكوني وحيدة في هذه الدنيا، فجعلني كذبك أظن بأنك أبٌ لي، لتعتدي عليَّ بضع مرات، بعدما كنت تخدّرني. لعنك الله، لقد قضيت عليَّ ودمّرتني.

فقال: من أين جئتِ بهذا الكلام عن الاعتداء والاستغلال؟

قلت: أهذا هو همّك؟ لقد فهمت الآن لماذا رفضت أن تدخلني المدرسة. أنت لست رجلًا، بل لستَ إنسانًا. أنت وحشٌ في صورة إنسان. أوهمتني بعاطفة كاذبة كي تصل إلى مبتغاك. لماذا فعلت ذلك؟ فلو كان لديك أولادٌ لكنتُ أصغرَ منهم. ولو كان لك ابنة فهل كنت تقبل أن يُعتدى عليها؟ أين ضميرك؟ بل إنِّي أشك في أن يكون عندك ضمير أو إحساسٌ إنسانيّ...

فرفع صوته في وجهي وقال بكل وقاحة: ما حصل قد حصل. لقد انتهى الأمر. فهل كنت تظنين بأنّي تكفّلت بمعيشتك على مدى تلك السنوات، من باب الحسنات والصدقات؟ لا يا عزيزتي، أنتِ الآن مُلكي، أتصرّف بكِ كما أشاء، وما عليكِ سوى السمع والطاعة. وإلا سأتخلّص

منك كما تخلّصت من أخيكِ. فلا تجرّبيني، واصمتي واقبلي بمصيرك، كي تعيشي بسلام ورخاء.

فصعقني بكلامه هذا، وأغرقني في بئرٍ من الصمت، لا قرار له. فتركته ودخلت غرفتي، وأقفلت بابها من الداخل، ورحت أفكّر في كلّ كلمة تفوّه بها، وماذا بإمكاني فعله. فإن هربت غدًا أو بعده، فإلى أين أو إلى من سألجأ؟ فأنا لا أعرف أحدًا في هذه الدنيا غيره. وإن خرجت من المنزل فلا أعرف حتى طريق العودة. فاضطرّني الخوف إلى الإذعان على مضض، والقبول بمصيري، إلى أن يقضي الله في أمري.

ولشدّة وقاحته، قرع بابي، بعد قليل، وطلب مني أن أوافيَه إلى فراشه. ولكنّني رفضت وهدّدته بأنّه إن حاول إجباري فسأنتحر. فتركني، بعدما قال: ولكنكِ ستأتينني صاغرة، إن لم يكن غدًا فبعده بالتأكيد.

وفي اليوم التالي بقيت في غرفتي ولم أغادرها إلا بعدما سمعت صوت إقفالِه الباب الخارجي. فأيقنت أنه ذهب إلى عمله.

ولكنّه، وعلى غير عادته، وبينما كنت في المطبخ أحضِّر الطعام للعشاء، عاد بعد الظهر قبل موعده المعتاد، ودخل إلى المطبخ حاملًا بيده بعض المأكولات. وقال لي: لقد حضر معي ضيفٌ مهمٌّ، عليكِ أن تقومي بواجبه على أكمل وجه. فاتركي الآن ما بيديك واذهبي واستحمّي لتتخلّصي من روائح الطبخ، ثم ارتدي الثوب الأحمر الذي اشتريته لك الأسبوع الفائت. فأدركت أن في الأمر شيئًا لم أعهده من قبل. وخاصّة أنّ الثوب المذكور، يكشف عن أجزاء كثيرة من جسدي. فقرّرت أن أحصّن نفسي. ولمّا عاد إلى ضيفه، أخذت من المطبخ سكينًا ووضعته إلى جانب سريري.

وبعدما اغتسلت، وتعطّرت، وارتديت الثوب المذكور، توجّهت إلى غرفة الجلوس. وإذا بي أمام رجلٍ أنيقٍ، وَخَطه الشيب، يقف لتحيّتي مردِّدًا كلمات الإعجاب بحسني وجمالي. فقال لي مسعودٌ: هذا هو فريد بك الذي كثيرًا ما ذكرت لك خيره علينا، فاجلسي بجانبه، تكريمًا له.

وعلى غير عادته أيضًا، تولَّى بنفسه القيام بواجب الضيافة. وعبارات الترحيب بفريد بك، لا تنقطع عن لسانه. وبعد ما يقرب من نصف الساعة، قال لي مسعود: ادخلي الآن إلى غرفتك، وسيلحق بك فريد بك، فلديه عرضُ عملٍ لك لا ترفضه عاقلة.

فدخلت غرفتي وجلست على السرير، ووضعت السكين بجانبي. لم يطل به الأمر حتى دخل فريد بك وأغلق باب الغرفة. فأدركت مراده، فأمسكت بالسكين ووجهته نحوه، وقلت له: لا تقترب مني وإلّا فسأغمده في صدرك أو في صدري. ففُوجئ بردّة فعلي، ونادى على مسعودٍ بأعلى صوته، قائلًا: ما هذا يا مسعود، هذه ليست قِطّة أليفةً، بل هي نَمِرة شرسة.

فدخل علينا مسعود وراح يكيل لي الإهانات، ويهدّدني بالعقاب إن لم أمتثل لمشيئته. وراح يقترب مني شيئا فشيئا، ولما أصبح على بعد خطوتين منّي وثبَ عليَّ كي يستولي على السكين، ولكنّه تعثر ووقع فوقي، فسمعته يصرخ قائلًا: لقد قتلتني يا فاجرة. ثم صمت وتلاشت قُواه وتدلّت يداه إلى جانبيَّ. فرحت أستغيث بفريد بك كي يرفعه عني، ولكنّه كان قد اختفى. فعملت بأقصى ما أوتيت من القوة، حتى استطعت إزاحته من فوقي فانقلب على ظهره. ولما رأيت السكين مغروسة في صدره، تحوّلت استغاثتي إلى صراخٍ وعويل. وبعد لحظات جاء ثلاثة رجال، أظنُّ أنهم من الجيران.

وسمعت أحدهم يقول: سأستدعي الشرطة، ولكن يجب ألا يمسّ أحدٌ شيئًا في الغرفة.

ثم انهارت قُواي وارتميتُ أرضًا ولم أعد أعي شيئا، إلى أن رأيتني في سيارة الإسعاف، حين سمعت صوت المُسعفة تقولُ لزميلها: لقد استعادت وعيها، فلا لزوم لنقلها إلى المستشفى، كما أنَّ أعضاء جسدها جميعها في حالة جيدة. ولمّا سألتني عن اسمي، لم أستطع الإجابة.

فقال القاضي: ولكن أوراق التحقيق الأولي لم يرد فيها سوى أن الشرطة ألقت القبض عليكِ متلبّسةً. وأنّ كل الأدلّة، وأهمُّها بصماتك على قبضة السكين، تثبت بأنك أنتِ القاتلة. فلماذا لم تدلِ بشيء مما رويته لنا على مدى ساعاتٍ؟

فقالت سوسن: هل يسمح لي سيدي القاضي بأن أشرح على مسامعه، السبب في ذلك، بوكالتي عنها؟

قال: أجل. فإني أريد الحقيقة لأتمكن من الحكم بالعدل.

قالت: إثر وقوع الحادث، اتصل بجمعيتنا ضابط الشرطة المكلّف بالتحقيق، طالبًا المساعدة، لأن الموقوفة، إمّا أنّها ممتنعة عن الكلام، أو أنّها لا تستطيع النطق. ولا نعرف عنها سوى اسمِها حسب بطاقتها الشخصية. وأنّ الطبيب الذي عادها لم يجزم في الأمر. فانتدبتني الجمعية لهذه المهمة. وبعد اطّلاعي على أوراق التحقيق، طلبت مقابلتها فشعرت بإحساس الأنثى أنَّ تأثير الصدمة كان شديدًا جدًا عليها، وقد يكون السبّب في عجزها عن النطق. فطلبت من الجمعية تكليف معالِجةٍ نفسيةٍ لدراسة وضعها، ومعالجتها إذا اقتضى الأمر، وهذا ما يساعدني في مهمتي. فكان أن حوّلت الشرطة ملفّ القضيّة، إلى قاضي التحقيق، مع ما قامت به من تحقيقات أوليّة شكليّة. والسبب في ذلك، بالتأكيد، صمتها الدائم، كما أنّ أحدًا لم يظهر أو يسأل عنها، سواء

من أهلها، أم حتى من أهل أو أقارب مسعود، أو من أصدقائه. كما أنّ قاضي التحقيق، وللأسباب عينها، أصدر قراره الظنّيّ استنادًا إلى ما توفّر في الملف من الأدلّة الحسيّة. وأظنُّ أنّ الزميل الكريم الأستاذ يوسف، المكلّف من قبل نقابة المحامين، على بيّنة مما أقول. ولما حُوِّلت القضيّة إلى محكمتكم الكريمة، أي بعد وقوع الحادثة بنحو الثلاثة أشهر، كانت المعالجة النفسية قد قطعت شوطًا كبيرًا في علاجها. ولما تبلَّغتُ موعد الجلسة الأولى، كانت جمانة قد استعادت نعمتَي النطق والذاكرة، فروت لي حكايتها بالتفصيل كما سمعناها سويةً إبّان هذه الجلسات.

عندئذٍ، أصدر القاضي قراره، بإعادة الجلسات إلى العلنيّة وفي قاعة المحكمة. ثم حدّد موعد الجلسة التالية، ورفع الجلسة.

***

وبعدما وقف، كلٌّ من طرفي النزاع، في الموقع المخصّص له في قاعة المحكمة، في أولى الجلسات العلنيّة الجديدة، أعطى القاضي الكلام أولًا للمحامي يوسف بوصفه وكيل الادّعاء، للإدلاء بأقواله.

فقال: سيدي القاضي، أكتفي بما سبق وأوردته في ورقة الدعوى التي قدّمتها سابقًا لمحكمتكم الكريمة، والتي طلبت فيها الحكم على المتهمة بأشدّ العقوبات، التي ينصُّ عليها قانون العقوبات، بحقّ من يرتكب جرم القتل عمدًا وعن سابق تصوّر وتصميم. خاصّة وأنَّها قد اعترفت أمامكم، بأنها أخذت السكين، أداة الجريمة، من المطبخ إلى غرفة النوم، قبل محاولة الاعتداء عليها.

وبعد ذلك أعطى الكلام إلى جهة الدفاع.

فقالت، سوسن: سيدي القاضي، إنَّ ما سمعناه من أقوال موكلتي، في الجلسات السابقة، فيه أمورٌ كثيرة تغيّر موضوع الدعوى من القتل عمدًا إلى الوفاة قضاءً وقدرًا إبّان دفاعها عن نفسها وعن شرفها، وهذا ما تقرّه القوانين في جميع أنحاء العالم، بالإضافة أيضًا إلى تعاليم الأديان السماويّة وغير السماويّة. علمًا بأنّه كان قد سبق للمقتول، أن اغتصبها وهي مسلوبة الإرادة تحت تأثير الكحول، ثم عاد واعتدى عليها مرارًا، تحت تأثير المنوّم. ولا ننسى أنها لم تزلْ قاصرًا. بالإضافة إلى محاولته استدراجها إلى طريق الدعارة. وللوصول إلى الحقيقة التي كرّرتم رغبتكم في معرفتها، أطلب، قبل بدء المرافعة، استدعاء المدعو فريد بك، كونه رأى عِيانًا وقائع الحادثة، وذلك لاستجلاء حقيقة ما حدث.

فقرّر القاضي قبول طلبها، واستدعاء الشاهد المذكور، بعدما تعهّدت بالحصول على عنوان مركز عمله أو سكنه، ورفع الجلسة.

***

وفي اليوم التالي، ذهبت سوسن إلى السجن، بعد استحصالها على الإذن القانونية، لمقابلة جمانة. حيث قالت لها: لقد تعهّدت للقاضي، كما سمعتِ إبّان جلسة يوم أمس، أن أرشد المحكمة على مكان عمل أو سكن المدعو فريد بك، ولذا أريد منكِ أن تذكري لي أيّ معلومة قد تمكّنني من الوصول إليه.

فقالت جمانة: إنّ المرّة الوحيدة التي رأيته فيها، كانت في ذلك اليوم المشؤوم. وكلّ ما كنت أسمعه من مسعود، أنّه من كبار التجار، وأنّنا كنّا نعيش من خيره، كيف؟ لا أعلم. وأنّه صاحب محلٍّ تجاريّ في أحد أهمُ شوارع بيروت.

فقالت سوسن: هل يمكنكِ وصفه؟ أو هل لاحظت فيه أيّ علامة فارقة؟

قالت جمانة: أظنُّ أنه يزيد مسعودًا في العمر ببضع سنوات. يغلب الشيب على معظم رأسه مع بعض الصلع. متوسط الطول، مستقيم الجسد، حنطي البشرة، ولكنّي لم أرَ لون عينيه. كما لم ألحظ فيه أيّ علامة فارقة.

قالت سوسن: ألم يذكر مسعود، أمامك، ما هي المواد التي يتاجر بها، أو اسمه بالكامل، أو اسم محلّه التجاري؟

قالت جمانة: أظنُّ أنّي سمعته مرّة يقول بأنّه يبيع الثياب النسائيّة، ولكنّي لست متأكدة.

قالت سوسن: ولمّا أتى به مسعود في ذلك اليوم، فهل أحضر معه شيئًا ما؟

قالت جمانة: لما وصلا كنت في المطبخ، وعندما التحقت بهما لم ألحظ شيئًا.

قالت سوسن: ولمّا دخل غرفتك، ماذا قال لكِ؟

قالت جمانة: أجل، أجل، تذكرت، لما دخل الغرفة كان يحمل بيده كيسًا، يغلب اللون الأحمر على ما كُتبَ عليه، وقبل أن يحاول الاقتراب مني، قال: هذه هديّة لكِ آمل أن تُعجبك.

فقاطعتها سوسن، وقالت بصوت المنتصر: شكرًا فقد حُلَّ اللغز، فانتظريني بعد غدٍ لآتيكِ بالخبر اليقين. ثم انصرفت من دون أن تفصح لجمانة بشيء، ما أوقعها في حَيرة من الأمر.

وبعد يومين، عادت سوسن إلى جمانة في السجن، حيث عرضت عليها ثلاث صور من ثلاث زوايا، لرجل واحد، وسألتها قائلة: أهذا هو فريد بك؟

فانتفضت جمانة مسرورة، وقالت: أجلْ، هو بعينه. ولكن كيف توصلت إليه بهذه السرعة؟

فقالت سوسن: لا عليكِ فإنّه سرُّ المهنة، وستعرفين كلَّ شيء فيما بعد، ولكن استبشري خيرًا إن شاء الله.

***

وبعدما افتتحتْ الجلسة التالية، ووقف الشاهد أمام منصة القضاء، توجه إليه القاضي، سائلًا: ما اسمك، وما هي سنّك، وما هو عملك؟

قال: اسمي، فريد شكري، وعمري خمسون عامًا، وأعمل في التجارة.

وبعد الاطلاع على بطاقته الشخصية والتحقّق من كلامه، طلب منه القاضي أن يقسم اليمين القانونية. ثم سأله: ماذا تعرف عن القضية؟

قال: سيدي القاضي، كل ما أعرفه هو أنّي مطلوب للشهادة أمامكم في الدعوى المتّهمة فيها المدعوّة جمانة سعيد، بقتل المدعو مسعود فؤاد.

قال القاضي: وهل تعرفهما؟

قال: أعرف مسعودًا، إذ كان يتردد على محلّي. أمّا جمانة، فلا أعرفها.

قال القاضي: انظر إلى فقص الاتّهام، وأجبني إن كنت رأيتها قبلًا.

وبعدما نظر فريد كما أمر القاضي، قال: لا سيدي القاضي لا أذكر أنّي رأيتها قبلًا.

قال القاضي: ولكنّها تقول بأنّك حاولت الاعتداء عليها، بتدبيرٍ من مسعود.

قال: لا، لم يحصل ذلك.

وبعدما ذكّره القاضي بأنه أقسم اليمين على أن يقول الحقّ، توجّه إلى المحامية سوسن، وقال لها: لكِ الآن أن تطرحي على الشاهد الأسئلة التي قلتِ بأنّ من شأنها إجلاء الحقيقة.

وبعدما شكرت القاضي، توجّهت إلى الشاهد سائلةً: هل أنت متأكدٌ من أنك لم ترَ المتّهمة قبل اليوم؟

أجاب: أجل، لا أذكر أنّني رأيتها.

قالت: ألم تأتِ، يوم العاشر من شهر حزيران الماضي، بصحبة مسعود إلى منزله؟

قال: لا أذكر ذلك.

قالت: قلتَ بأن مسعودًا كان يتردّد عليك، فما الداعي لذلك؟

قال: كغيره من العملاء.

قالت: أتعني بأنه كان يأتيكَ بائعًا أم شاريًا؟

قال: كان أحيانًا يشتري بعض الملابس.

قالت: قلتَ، «أحيانًا»، يعني أنّه كان هناك سببٌ أو أسبابٌ أخرى لتردّده عليك. فإن لم يكن يريد الشراء، فلماذا كان يأتيك؟ فهل كانت تربط بينكما أيّ علاقة، من صداقة أو غيرها؟

قال: لا، لم نكن صديقين بكل معنى الكلمة، بل مجرّد معرفة فقط.

قالت: وماذا كان نوع عمله؟ هل كان يعمل في التجارة أيضًا؟

قال: لا لم يكن تاجرًا.

قالت: وماذا كان يعمل إذًا؟

قال: لا أعرف.

قالت: أمتزوجٌ أنت؟

هنا اعترض المحامي يوسف، وكيل الادعاء، قائلًا: سيدي القاضي، إنّ هذا تدخل في أمور الشاهد الشخصيّة، فأطلب حذف هذا السؤال.

قالت سوسن: سيدي القاضي، إنّ سؤالي هذا ليس للتدخل في شؤون الشاهد الشخصيّة، بل عليه يتوقف مصير فتاةٍ قاصر.

فقال القاضي: الاعتراض غير مقبول، فأكملي.

فقالت لفريد: أكرّر سؤالي، هل أنت متزوّج؟

قال: لقد توفّيت زوجتي منذ ما يزيد عن الأربع سنوات، ولم أتزوّج بعدها.

قالت: رحمة الله عليها، وهل عندك أولاد؟

قال: نعم: ولدان.

قالت: وهل تسكنون معًا في منزل واحد؟

عندئذٍ، اعترض يوسف قائلًا: سيدي القاضي، إن سؤال الزميلة هذا لا علاقة له بالقضية.

فقالت سوسن: سيدي القاضي، سأدع هذا السؤال جانبًا إن لم يرغب الشاهد في الإجابة عليه، ولكنّي أكرّر بأنّ هذه الأسئلة هي التي ستقودنا إلى معرفة الحقيقة، كما قلتُ في الجلسة السابقة، فأرجو السماح لي بالمتابعة.

فقال القاضي: استمرّي، ولكن عليكِ عدم تجاوز الحدود التي تحدّدها القوانين.

فشكرته وتابعت أسئلتها، وقالت لفريد: إن شئت عدم الإجابة على سؤالي، فلست مُكرهًا.

قال: لا، لا مانع لدي من الإجابة، وأنت لست الأولى ولا الأخيرة في طرح مثل هذا السؤال. إن ولدَيّ شابّان متزوّجان ويقطن كلٌّ منهما في مسكنه الخاصّ.

قالت: نعود، إلى مسعود، فهل عرض عليك يومًا بأن يجمعك بإحداهنَّ؟

فوجئ فريدٌ بسؤالها واحمرّ وجهُه، وبانت عليه علامات الارتباك. بينما اعترض يوسف، مؤكدًا أن ليس من حقها طرح هذا النوع من الأسئلة على الشاهد.

فقال القاضي: الاعتراض مقبول، فسنحذف سؤالك هذا.

فقالت: سيدي القاضي، سؤالي هذا ليس لتوجيه الإهانة أو الاتهام إلى الشاهد. ولكن، إبَّان البحث عن عنوان السيّد فريد، كما تعهّدت لكم في الجلسة السابقة، فقد زلَّ لسان أحد العاملين في الشارع، حيث مقرّ عمل الشاهد، لمّا علم بوفاة مسعود، بقوله: أعان الله فريد بك، فقد خسر الكثير من المتعة. ولمّا استفسرتُ عمّا يقصد من كلامه هذا، قال: لا شيء أرجوكِ، لم أقل شيئا.

إثر ذلك، بانت على فريدٍ شدةُ الارتباك. فلم تمهله سوسن، بل فاجأته قائلةً: ألم تكن تعلم أنَّ مسعودًا كانَ «قوادًا»؟

فانهار فريدٌ، واختلطت أصوات همهمات الحاضرين في القاعة، بصوت مطرقة القاضي. وجمانة واقفة، لا تفهم ماذا يجري أمامها.

وبعد عودة الهدوء إلى القاعة، توجهت سوسن إلى الشاهد وقالت: يا سيّد فريد، لست معنيًا بأي اتّهام، ولكن على إفصاحك عن الحقيقة، يتوقّف مصير فتاة لم تزل في أول عمرها. فإن شئتَ فسأذكّرك بما حصل يوم العاشر من شهر حزيران الماضي، وما عليك سوى التأكيد أو النفي. وهذا من بعد إذن السيّد القاضي.

ولما بقي فريدٌ صامتًا قال القاضي لسوسن: أكملي، فلا أريد سوى الحقيقة.

فشكرته سوسن وقالت: يا سيّد فريد، بعد ظهر ذلك اليوم، اصطحبك مسعودٌ إلى منزله، حيث تقيم معه هذه الفتاة القاصر الماثلة في قفص الاتّهام، والتي تولّى أمرها، منذ كانت في الثامنة، بعد وفاة والديها إبّان الحرب الأهلية. وبعدما طلب منها الجلوس بجانبك، ثم قيامه بواجب الضيافة بنفسه، أمرها أن تسبقك إلى غرفة نومها، مدّعيًا أنّك تريد أن تعرض عليها عملًا لا ترفضه فتاةٌ عاقلة. ولمّا دخلتَ أنت غرفتها، كان في يدك كيسٌ مطبوعٌ عليه اسم وعلامة محلك التجاري، الذي هو من أشهر المحلات التي تبيع الملبوسات النسائيّة الفاخرة، وقلت لها بأنَّك أحضرت لها هديةً جميلة. ولمّا حاولت الاقتراب منها، شهرتْ سكينًا بوجهك.

وقبل أن تكمل، قاطعها قائلًا: كفى أرجوك.

قالت: أتريد أن تكمل أنت؟

فقال، بصوت يتهدّج: عندما شهرت السكين بوجهي، ناديتُ مسعودًا ليخلّصني من تلك الورطة. فدخل علينا وهو يكيل لها الإهانات ويهدّدها بالعقاب. ولكنّها بقيت على موقفها. فتقدّم نحوها لينتزع السكين من يدها، ولكنه تعثر ووقع فوقها. ولمّا سمعته يقول لها: قتلتني يا فاجرة. تملّكني الخوف فهربت، ولم أعرف ماذا حصل بعد ذلك.

قالت سوسن: لقد كان مسعودُ إذًا، قوادًا كما استوحيتُ من كلام ذلك الرجل. فهل هذا صحيح؟

قال: أجل. ولكن أرجوكِ أن تكتفي بهذا القدر.

فقالت: شكرًا سيّدي القاضي، فسأكتفي اليوم بهذا القدر، لأنّني أرى أن الحقيقة قد بانت. فجمانة لم تكن تنوي قتل مسعود، بل هي شهرت السكين بوجه فريد كي تمنعه من

الاعتداء عليها، فقط. ولو لم يتدخّل مسعود لما حصل ما حصل. وكما يقول المثل: «على نفسها جنت براقش».

فقرّر القاضي رفع الجلسة إلى موعدٍ لاحقٍ للبدء في المرافعة.

***

في الموعد المحدّد عُقِدت الجلسة حسب الأصول القانونية. فأعطى القاضي الكلام ليوسف، وكيل الادّعاء، الذي كرّر طلبه بإنزال العقوبة القانونيّة بالمتّهمة. ولمّا جاء دور سوسن، وكيلة المتّهمة، قالت: سيدي القاضي، قبل أن نبدأ بالمرافعة، سأعرض أمام عدالة المحكمة واقعة تؤكد ما ذكرته موكّلتي، جمانة، من أن مسعودًا تسبب عمدًا بوفاة شقيقها، ذلك الطفل الذي تسبّبت له تلك القذيفة، التي قتلت والديه، بالعجز عن الحركة والكلام. لقد ذهبتُ إلى المستشفى الذي تلقّى فيه العلاج الأوليّ إثر تلك الحادثة، فتبيّن من محفوظاته أنّ حالته لم تكن ميؤوسًا منها، كما أوهم مسعودٌ شقيقته جمانة، فقد كانت نتيجة تشخيص أطبّاء المستشفى بأنّه في حال خضوعه للعلاج الفيزيائيّ فكان هناك أملٌ كبيرٌ في استرجاعه قوّته الجسديّة، لأنّ الإصابة التي تعرّض لها عموده الفقريّ لم تكن خطيرة لدرجة ان تتسبّب له بالشلل الدائم. أما عجزه عن النطق، فكان في رأيهم مؤقتًا، وكان بإمكان معالجٍ نفسيٍّ متخصّص أن يعيده إلى طبيعته في فترة غير طويلة. وقد استحصلت من إدارة المستشفى على صورتين مصدّقتين منها، واحدة عن تقرير الأطبّاء، والأخرى عن الكتاب الذي وقّعه مسعودٌ، بتسلّمه الطفل وتعهّد فيه بمتابعة علاجه على مسؤوليّته بصفته متكفّلًا بولاية أمره، بعد وفاة والديه، وانقطاع أثر من يمتُّ إليه بالقربى غيره، عنيت مسعودًا، بخاصّة أنه كان بصحبة

رجال الإسعاف الذين أوصلوه إلى المستشفى. وأرجو ضمّهما إلى ملفّ القضيّة.

سيدي القاضي، لقد أصبح أمامكم بيّنتان تؤكدان صدق هذه الطفلة التي وضعتها الأقدار بين يدي رجلٍ انعدمت فيه صفات الرجولة والإنسانيّة والشرف، وفي ظلِّ نيّته المبيّتة لاستغلالها ماديًا. الأولى شهادة فريد شكري، والثانية عمله على دفعها إلى السير على طريق الدعارة. وذلك منذ إعلان تكفُّله بمعيشتها هي وشقيقها، ثم بامتناعه عن علاج هذا الأخير، وحرمانها هي من تلقي العلم. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

سيدي القاضي، إنّ هذه الفتاة الماثلة أمامكم في قفص الاتهام، ليست مجرمة ولا مذنبة، بل هي ضحيّة. هي ضحيّة مسعودٍ ومهنتِه القذرة. وهي أيضًا ضحيّة هذه الدولة الفاشلة، التي أهملت أو قل، تقاعست، حكوماتُها المتعاقبة عن تجهيز وتقوية القُوى المسلّحة كما يلزم لضمان أمن لبنان واللبنانيين، حتى استبيحت أرضه من قبل القُوى الخارجية، لتتحول إلى ساحات قتالٍ «جيوشه» شبابٌ متحمّسون من أبناء وطني، أقنعهم «زعماء طوائفهم» بأنّ كلًا منهم يقاتل في سبيل المحافظة على كيان لبنان وأمن أبنائه. فلم نحصد من ذلك سوى القتلِ والتهجير والدمار، من دون تمييز بين مقاتل وأعزل. فقتل وهُجّرَ مئات الألوف من المدنيين العزّل، لا فرق إن كانوا عجزةً أو أطفالًا أو نساءً. وكان من بين هؤلاء، والدا جمانة. وعلى الرُّغم من أنّ أجهزة الدولة أخذت علمًا يوم قُتلا، بأن طفليهما قد أصبحا «مقطوعين من شجرة»، كما يقول المثل العامّيّ، فلم يبادر أيٌّ من تلك

[1] (سورة النور 33).

الأجهزة لتولي أمرهما، بل سلمهما لرجلٍ، ادعى بأنه أحد أقارب والدهما، من دون التحقّق من ادّعائه، أو حتى من أهليّته لتلك المهمة. فكانت النتيجة هذه القضيّة التي لم تكنْ لتحصل لو تولّى أمرهما أحدُ تلك الأجهزة، أو سلّمهما إلى إحدى الجمعيات العاملة في هذا المضمار.

واستنادًا إلى وقائع الحادثة، كما روتها موكّلتي، وأكّدها، فريد شكري، الشاهد الوحيد بالعِيان، وعزّزها وضوح نيّة وتصرفات مسعودٍ، بإهمال علاج شقيقها الطفل للتخلّص منه، وبحرمانها من التعلّم، ثم باغتصابها بعدما أسكرها، وبتكرار اعتدائه عليها تحت تأثير المنوّم الذي كان يدسّه لها في العصير، وصولًا إلى محاولة إكراهها على مضاجعة الشاهد فريد؛ فكلّ هذا يدعوني إلى أن أطلب من عدالتكم، الحكم ببراءتها من تهمة القتل، وبأنّ موت مسعودٍ حدث قضاءً وقدرًا.

ولما أنهت سوسن كلامها، سأل القاضي، وكيلَ الادعاءِ، عمّا إن كان لديه من أقوال أخرى، أو تعليقٍ على كلام زميلته، وكيلة المتّهمة. فأجاب يوسفُ بالنفي. فرفع القاضي الجلسة بعدما حدّد تاريخًا لاحقًا للنطق بالحكم.

***

وفي الموعد المحدّد، شهدت القاعة حشدًا من أناسٍ تابعوا وقائع الجلسات السابقة، أو سمعوا عنها، وآخرين من أعضاء الجمعيات التي تناهض وتحارب استغلال الأطفال، سواء في الدعارة أم في غيرها، بالإضافة إلى المولجين بالقضية. وبعد فتح الجلسة تلا القاضي نصَّ الحكم. ولما بلغ الخلاصة راح يقرأها بتمهلٍ قائلًا:

نحن القاضي الجزائي المنفرد في بيروت، نحكم بما يلي:

أولا: اعتبار وفاة المدعو مسعودًا، قضاءً وقدرًا.

ثانيًا: براءة المتّهمة جمانة سعيد من تهمة القتل.

ولم يكد القاضي يكمل قراءة عبارته هذه، حتى علا التصفيق في القاعة والهُتاف بالتحيّة للعدل. أمّا جمانة فصارت ترقص في قفصها فرحًا. بينما شمخت سوسن برأسها شموخ المنتصر، ويداها مرتفعتان تحية للقاضي، الذي اضطر إلى التوقف عن القراءة حتى عاد الهدوء إلى القاعة، فأكمل:

ثالثًا: يُخلى سبيل القاصر، جمانة المذكورة، إن لم تكن محكومة أو مطلوبة في قضية أخرى، وتُسلّم فورًا إلى وزارة الشؤون الاجتماعية لتتولّى رعايتها حسب المقتضى، إلى أن يصبح الحكم مبرمًا بانقضاء مهلة الاستئناف. أو إلى ما بعد صدور حكم محكمة الاستئناف، في حال استأنفت الجهة المدّعية هذا الحكم.

حكمًا وجاهيًا قابلًا للاستئناف ضمن المهلة القانونيّة، تُلي وأفهم علنًا.

في بيروت في يوم كذا من شهر كذا.

وقبل أن يرفع القاضي الجلسة طلبت منه سوسنُ الإذن في الكلام. فلمّا أذن لها، وبعدما شكرته، قالت: سيّدي القاضي، هناك من هو أجدر من الجمعيّات، ليتولّى شؤون جمانة.

فسادَ الصمتُ الجميع، وقال القاضي: أكملي مفاجآتك أستاذة سوسن، فمن يكون ذلك؟

قالت: إنّه ذلك الرجل الجالس هناك صامتًا، وأومأت إليه بالوقوف والاقتراب منها، ثم أردفت، هو عمُّها عامر، الذي حضر من كندا خصّيصًا لهذه الغاية، بعدما تمكّنتُ من التواصل معه، إثر الحصول على عنوانه، بمساعدة بعض

الأصدقاء العاملين في الشأن العام، من اللبنانيين المقيمين في كندا.

فقال القاضي: أحسنت صنعًا، ولكن عليك الانتظار إلى ما بعد حكم محكمة الاستئناف، ثم القيام بالإجراءات القانونية المتّبعة لدى الوزارة المذكورة.

كان وقع هذه المفاجأة على جمانة مختلفًا، إذ انتابتها عاصفة من الضحك الممزوج بالدموع والبكاء والسرور والخوف. فهل ستنتهي معاناتها على يد هذا الرجل؟ ولماذا بقي متخفيًا حتّى اليوم؟ وهل ستعيش فعلًا في كنفه؟ وهل هو حقًا شقيق والدها؟ أم أنه مسعودٌ ثانٍ؟

ولما انتهت سوسن من الحديث مع القاضي، أمسكت بيد عامر وذهبا إلى جمانة، وضمّتها كما تضمُّ الأمُّ الرؤوم ابنتها، وراحت تطمئنها بأن معاناتها قد انتهت. ولمّا هدأ روعها، قالت جمانة: أهو حقًا عمّي؟ أخاف أن يكون كمسعودٍ يدّعي ذلك لغاية في نفسه. وأين كان كلّ هذه المدة؟ لقد مات أبي وفي قلبه حسرةٌ جرّاء انقطاع أخباره عنه. لا، لا إنّي خائفة منه.

فقالت سوسن: لقد صبرتِ طويلًا، فاصبري بعدُ قليلًا حتى أُنهي الإجراءات القانونيّة لإخراجك من السجن، ثم نجلس نحن الثلاثة معًا لنضع حدًّا لجميع أسئلتك ومخاوفك. فعَليَّ الآن أن أذهب لإتمام الأوراق اللازمة لانتقالك أولًا إلى عهدة وزارة الشؤون الاجتماعيّة، وبعد ذلك أسعى إلى نقلك إلى عهدة جمعيتنا إلى أن تنتهي المدد التي حدّدها القاضي.

وقبل أن تتركها مع عمّها، اقترب المحامي يوسفُ منهم، وبادر سوسن بتهنئتها على ما قامت به من جهد، لإثبات براءة جمانة. ثم قال: منذ أن أنهت جمانة سرد حكايتها

أمامنا، شعرت بصدق كلامها. ولمّا سمعت شهادة فريد، واطلعت على تقرير المستشفى عن حالة شقيقها اقتنعت ببراءتها. ولم يكن حكم القاضي مفاجئًا لي، وقد عُرف عنه عدله ونزاهته، وحبّذا لو تحلّى قضاتنا أجمعين بمثل صفاته. هذا وسأقوم بإبلاغ نقيب المحامين بأنّني لن أطلب استئناف الحكم. وإذا أصرّ فسأعتذر عن متابعة القضيّة.

فشكرته سوسن، واستأذنته وتركتهم، وتوجّهت مسرعة إلى قلم المحكمة للاستحصال على صورة مصدّقة عن الحكم، كي يتمَّ نقل جمانة من السجن إلى عهدة وزارة الشؤون الاجتماعيّة.

وقبل أن يهمَّ رجل الأمن، المكلف بحراسة جمانة، بإعادتها إلى السجن، اقترب عامر من جمانة، قائلا: أتسمحين لي يا ابنة أخي الحبيب، أن أضمّك إلى صدري، ولنهنأ معًا ببراءتكِ؟

ولما لم تبدِ أيَّ اعتراضٍ، احتضنها بين ذراعيه وراح يطبع على وجنتيها وجبينها قبلاتٍ أبويّة صادقة، فإذا بها تُفاجئه بارتمائها على صدره، إذ شعرت بتيّارٍ يدفعها بقوة إلى ذلك؛ ثم راحت تمرّغ به أنفها ووجهها، والدموع تنهمر بغزارة من مقلتيها، تارة تضحك وتارة تبكي. ثم رفعت رأسها لتقبّل وجنتيه، وهي تقول، بصوت متقطع: الآن أيقنت أنّك حقًا عمّي، فرائحة جسدِك هي بعينها رائحة جسد أبي. لماذا تركته يموت وأنت بعيدٌ عنه وعنّا أنا وأخي وأمّي؟ أين كنت يا عمّاه حينما كنتُ بحاجة إلى من يحميني من مسعودٍ، ذلك النذل؟...

فأسكتها عامر، واحتضنها بشدّة، وقبّل رأسها، ثم قال: حكاية غيابي طويلة جدًّا سأقصُّها عليكِ فيما بعد. ولكن ثقي يا حبيبتي بأنني سأنسيكِ كلَّ ما عانيتِ منه وسأعوّضكِ

أضعافه محبّة وسعادة. وستكونين ابنتي الوحيدة، فأنا لم أُرزق بأولاد لأن زوجتي عاقرٌ. فإن ارتضتْ أن تعيش معنا فحبًا وكرامةً، وإن أبت فحبلُها على غاربها. كما أنّي، قبل مجيئي، وبمساعدة محامٍ كنديٍّ قديرٍ، وبالتنسيق مع الأستاذة سوسن، فقد تقدّمت من المراجع المختصّة في كندا بطلب تأشيرة انضمامك إليّ بما يسمُّونه «جمع الشمل»، ولا ينقصنا سوى صورة جواز سفرك، الذي سأسعى معها أيضًا إلى الحصول عليه في أسرع وقت. ولن أعود إلى كندا إلّا ويدُك بيدي.

فسألته جمانة: ومتى أتيت؟

أجاب: منذ ما قبل هذه الجلسة.

قالت: ولماذا بقيتَ متخفيًا؟

قال: كان هذا بناءً على طلب سوسن. إذ قالت بأنّ ظهوري قبل صدور الحكم، قد يكون له بعض التأثير على مسار القضية، ولأنّها كانت واثقة من الحكم ببراءتكِ.

قالت: ومتى كان أول اتّصال بينك وبينها؟

قال: منذ ما يزيد عن الشهرين. وبناء على طلبي، فقد زوّدتني بما لديها من أوراقك الشخصية، ومما يثبت تلك الحادثة الأليمة، وبأنّني أصبحت الشخص الوحيد المسؤول عنك بعد وفاة والديك، رحمهما الله. وبعدما تقدّمت بطلب التأشيرة تلك، استنادًا إلى هذه الأوراق، أتيت فورًا. ولست أدري كيف لي أن أردَّ لسوسن جميل صُنعها... وها هي قد عادت الآن منتصرةً أيضًا، فإنّي أرى بعض الأوراقِ في يدها. باركها الله.

ولما وصلت سوسن، قالت لرجل الأمن: شكرًا لك على ما أبديته من إنسانيّة بسماحك لهذه الطفلة اليتيمة بِلقاء عمّها الذي لم ترَه، منذ ولدتها أمّها، سوى هذه الساعة. والآن هيّا،

اذهب أنت بجمانة، حسبما تقتضي القوانين والأنظمة، وسنلحق بكما أنا والسيّد عامر، فورًا، لنتمكن من إتمام أوّل إجراءات تنفيذ حكم القاضي قبل انتهاء ساعات العمل في الوزارة.

الأمُّ البديلة

ما أن دخل سميرٌ مكتبَ والده، خالد، في اليوم التالي لحفل تخرّجه في الجامعة، حتّى قال له هذا الأخير، وإشراقة الفخر والمحبّة تعلو محيّاه: إنّني فخورٌ جدًّا بك يا بُنيّ، إذ لم تكتفِ بالنجاح، بل حصلت على أعلى الدرجات، لقد أثلجت صدري. فهل جئت الآن لتتسلّم مهامّك في العمل معنا، أنا وشريكي، فادي؟

فقال سمير: لا يا أبتي، لم يحن الوقت بعد لهذا، لأنّ الإجازة في إدارة الأعمال ليست الغايةَ القصوى لما أنشده من العلم.

قال خالد: فما هي غايتك إذًا؟ هل لكَ أن توضح؟

قال سمير: إنّي أرغب، قبل السير على دروب العمل، في أن تكون قدماي صلبتين وقادرتين على تخطّي أصعب العقبات، وعلى التمكّنِ من حلِّ أعقد العقد، ووضعِ الخطط التي من شأنها ضمان نجاحي في متابعة مسيرتكما في الشركة من حسنٍ إلى أحسن. ولهذا فإنّني أرغب في متابعة الدراسة حتى أنالَ شهادة الدكتوراه في تخصصي هذا.

قال خالد: هذا قرارٌ صائبٌ، ولكنّه سيحتاج إلى ما لا يقلُّ عن السنوات الثلاث، أليس كذلك؟

قال سمير: أجل، هذا صحيح، ولكنّ هذه السنوات ستزودني بثروةٍ علميّة تمكنّني من ذلك النجاح الذي أنشد.

قال خالد: وإلى إيّ جامعة تريد الانتساب لذلك؟

قال سمير: بل أرغب في الدراسة في الولايات المتحدة الأميركيّة، وقد تسلّمت اليوم رسالة قبولي في إحدى أهمّ جامعاتها. وقد رغبت في كتمان الأمر عنك إلى ما بعد تسلّمي الجواب بالقبول.

قال خالد: لك ما تريد يا بنيّ، فأنت ولدي الوحيد، وأتمنّى لك دومًا الأفضل والأحسن من كلِّ شيء.

قال سمير: أعرف جيدًا، يا والدي الحبيب، ما تكنّه لي في نفسك وقلبك وعقلك. وهناك أمرٌ آخر أيضًا، في غاية الأهميّة، إن لم يكن أهمّ شؤون حياتي، أريد أن تعرفه.

فقاطعه خالد قائلًا: وهل هناك ما هو أهمّ من اختيار أجود وأفضل الأسس لمستقبلك في العمل؟

قال سمير: بل هو أيضًا مكملٌ لها، إن لم يكن أوّلها وأهمّها.

قال خالد: أرجوك أفصح يا بنيّ، ما هو؟ لقد حيّرتني.

قال سمير: لا والدي الحبيب، بل أظنُّ أنّ فيه ما يُسرّك. إنها لُبنى ابنة شريكك فادي.

قال خالد: وما علاقتها بدراستك؟

قال سمير: بالله عليك يا والدي لا تتعجل واسمعني. منذ نعومة أظفاري، وبحكم شراكتك مع والدها في العمل، وأنا أرى عائلتينا تعيشان كأنهما عائلة واحدة. ولأنّ لُبنى وحيدةُ والديها، كما هي حالي، وعلى الرُّغم من أنّني أكبُرها بنحو ثلاث سنوات، فلم نفترق يومًا. كما أنّنا كنّا نتعلّم في مدرسة واحدة. فلم أكن أشعر يومًا تُجاهها بغير شعور الأخوّة والمسؤولية عن حمايتها والاهتمام بها ما دمنا معًا. ولكن، منذ بضع سنوات، وبعدما رأيتها تنضج أنوثةً وعقلًا وتفكيرًا، بالإضافة إلى ما وهبها الله من الحسن والجمال، أخذ إحساسي يتبدّل تُجاهها. فأصبحتُ كلّما أمسكتُ يدها

أشعر بدفءٍ لم أعهده من قبل. ومنذ عامين تقريبًا صارحتها بطبيعة حبّي لها، فإذا بها تبادلني الشعور نفسه. فامتلأ قلبي سرورًا وسعادة لم أشعر بمثلهما سابقًا. وبالأمس، عندما جاءت تبارك لي ضممتها إلى صدري وقلت لها بأنّني أنتظر بفارغ الصبر يوم انتهائها من دراستها الجامعية كي نتزوج. فأجابتني بأنّ شوقها لذلك أعظمُ من شوقي. ولمّا أعلمتها بقراري السفر للدراسة، شعرتُ بغصّة تشوب صوتها. ولكنّها عادت واقتنعت بأنّ ذلك قد يكون لمصلحتنا معًا.

فقاطعه خالد، وابتسامة السرور والسعادة تعلو تقاطيع وجهه، ودموع الفرح تفيض من عينيه، وهو يقول: إنّه أسعد خبرٍ أسمعه الآن منذ ما بعد ولادتِكَ يا قرّة عيني. إنّي أكاد لا أُصدّق، هل حقيقة ما أسمع أم أنّني أحلم؟ فوحيدي الذي، بالأمس كنتُ ألاعبه طفلًا، أصبح اليوم رجلًا يريد الزواج، وبمن؟ بوحيدة شريكي وصديقي الوحيد في هذه الدنيا؟ بالله عليك يا بنيّ، هل ما تقول هو حقيقيّ، أم أنّي أحلم؟

فأجاب سميرٌ: لا يا أبتي، ليس حلمًا، بل هي الحقيقة بعينها.

فقال خالد: وهل تظنُّ يا بنيّ أنّ من الممكن لك أن تحظى بزوجة أفضل وأحسن وأجمل وأرقّ من الحبيبة لُبنى؟ لك الحمد والشكر يا إلهي إذ استجبت دعاءنا. فكم انتظرت هذه اللحظة، يا ولدي الحبيب.

فقاطعه سميرٌ، قائلًا: مهلًا، مهلًا يا أبتاه. دعاء من؟

فأجاب خالد: أنا ووالدتك، يا حبيبي. ولكن، ما دمتما متحابّين ومتفقين على الزواج، فلماذا تنوي الابتعاد عنها هذه السنوات الثلاث؟

قال سمير: وماذا تعني بسؤالك هذا يا أبي؟

قال خالد: تتزوجان وتنتقل هي أيضًا للدراسة في الجامعة عينها التي ستنتسب أنتَ إليها أيضًا.

قال سمير: لم يخطر ببالي هذا الأمر أبدًا، أو قد أكون استبعدته ظنًّا منّي أن قد لا يقبل به والداها.

قال خالد: دعْ هذا الأمر لي، ولا تفصح عنه حتى للحبيبة لُبنى نفسها. والآن اذهب أنت في حال سبيلك. وموعدنا مساءً في المنزل. فلا تتأخّرْ عن موعد عودتي.

***

وما أن انصرف سميرٌ حتّى قفز خالدٌ من خلف مكتبه وتوجه مسرعًا إلى مكتب شريكه فادي. وفور دخوله عليه، بادره بوجهٍ مشرقٍ قائلًا: صديقي وأخي وشريكي العزيز فادي، لك عندي خبرٌ لا يُقدّر بثمن، فهل أنت مستعدٌّ لسماعه؟

فقال فادي: تعابيرُ السرور والسعادة على وجهك، تجعلني متشوقًا لسماعه، فإليّ به ولا تتأخّر ومن دون مقدمات.

قال خالد: سنصبح، إن شاء الله، شريكين أيضًا في الأحفاد.

قال فادي: ماذا تقول؟ أعدْ، أعدْ، وهل تعني أن سميرًا ولُبنى قرّرا الزواج؟

قال خالد: أجل يا أخي، ألم تكن هذه أمنيتك التي لم تفصح عنها يومًا؟

قال فادي: وما أدراك بذلك؟

قال خالد: لأنّها أمنيتي أنا أيضًا، ولا تنسَ أنّنا شريكان منذ أمدٍ بعيد، وأنّ ما يدور في خَلَدِ أيٍّ منا يفهمه الآخر حتى قبل أن يُفصحَ له عنه. وألم يكن سؤالك السابق نابعًا من عقلك الباطن؟ والآن يمكننا القول بأنّ أمنيتنا قد بدأت تتحقق.

قال فادي: ولكنّ سؤالي كان، أيضًا، عن مصدر هذا الخبر السعيد.

قال خالد: لقد أسعدني به سميرٌ للتّوّ، وبأنّهما اتفقا على الزواج فور تخرّجها في الجامعة، أي بعد عامين أو ثلاثة.

قال فادي: أرجو ألّا تكون أنت قد أوحيت إليه بذلك.

قال خالد: لا يا صديقي، لم يكن لي أيُّ دورٍ في هذا الأمر، بل قد جاءني خصّيصًا، كما قال، ليعلمني بذلك وبمدى حبّه لها، طالبًا منّي أن أبارك قرارهما ثمّ أن أقوم بدوري كأبٍ بسؤالك ذلك. والآن يمكنني أن أبوح لك، بأننا، أنا وزوجتي ليلى، كنّا دومًا ندعو ربنا أن يجمع الحبُّ والزواجُ بينهما. فبالله عليك يا صديقي ألا تشاركاننا، أنت والعزيزة وفاء، هذه الأمنية؟

قال فادي: أجل يا صديقي، إنّها رغبتنا أيضًا. ولكن لم يكن سهلًا علينا أن نعلنها.

قال خالد: وهذا كان حالنا أيضًا. ولكن هناك أمرًا آخر أريدك أن تشاركني الرأي فيه.

قال فادي: وما هو؟

قال خالد: إنّ سميرًا ينوي السفر إلى الولايات المتحدة الأميركية لمتابعة الدراسة في إحدى جامعاتها للحصول على شهادة الدكتوراه، ثم يعود بعدها للعمل معنا في الشركة. وهذا يعني أنّ غيابه قد يطول مدة قد لا تقلُّ عن السنوات الثلاث.

قال فادي: وأيُّ دورٍ تطلب منّي أن أقوم به؟

قال خالد: لا يا صديقي، ليس في الأمر أدوارٌ نتناوبها. فالمطلوب منك أولًا، الموافقة على سفر الحبيبة لُبنى معه لمتابعة دراستها في الجامعة عينها، وبالتأكيد بعد زواجهما. وثانيًا، إقناعها هي والعزيزة وفاء بالقبول بهذا الحلّ.

قال فادي: لا يا صديقي هذا أمرٌ سهلٌ جدًّا، ويسعدني جدًّا إتمامه، على الرّغم من أنّ وحيدتي ستبتعد عنّا «دهرًا» من الزمن.

قال خالد: إذًا، ما رأيك في أن تدعونا على العشاء هذا المساء؟

قال فادي: وهل أنتم بحاجة للدعوة، يا أخي؟ فبيتنا بيتكم.

قال خالد: أعرف هذا جيدًا يا عزيزي، ولكنّها وسيلةٌ لبلوغ الغاية. ولذا سأكلم العزيزة وفاء بنفسي لأبلغها بأنّني اشتقت لأكل «التبّولة» من صنع يديها.

فتناول سماعة الهاتف من على مكتب شريكه، وطلب من السكرتيرة أن توصله بمنزل فادي. ولمّا أجابت وفاء، وبعدما حيّاها، قال لها خالد: هل لكِ أن تحضّري لنا «صحن تبّولة» هذا المساء؟ لأنّني قد دعوتُ نفسي وليلى وسميرًا على العشاء في منزلكم العامر، احتفالًا بتخرج سمير.

فقالت: على الرحب والسعة، وصدورنا مفتوحة لاستقبالكم ساعة تشاؤون.

وبعدما شكرها خالد قال: وهذا فادي يريد أن يكلمكِ.

فتناول فادي السمّاعة وقال لزوجته: ستسعدنا زيارتهم هذا المساء، فهل تحتاجين إلى أيّ شيء كي أبعث بالسائق لقضائه؟

قالت: لا، فبالأمس اشتريت ما نحتاج إليه بما فيه مواد التبولة.

قال فادي: حسنٌ، وأرجو أن تبلغي الحبيبة لُبنى بذلك.

ولمّا أعاد فادي السماعة إلى مكانها، قال خالد: أرأيت يا صديقي، فها أنت قد علمت ما أرغب فيه قبل أن أفصحَ عنه، فلم تُبلغ العزيزة وفاء بسبب زيارتنا. وهذا ما سأفعله بدوري مع زوجتي ليلى.

ثم عاد خالد وطلب من السكرتيرة أن توصله بزوجته. ولمّا أجابت ليلى، وبعدما حيّاها قال لها: إن فاديًا يريد محادثتك. فأخذ فادي السمّاعة، وبعدما حيّاها قال: لقد دعتنا وفاء على «صحن تبّولة» هذا المساء نتناوله معًا، نحن أفراد العائلتين، احتفالًا بتخرّج الحبيب سمير. فسنكون سعداء بحضوركم أنتم الثلاثة.

فقالت: بل هو من دواعي سرورنا، وإلى اللقاء مساءً، إن شاء الله.

وفي المساء، اجتمع أفراد العائلتين في منزل فادي. وأخذ كلّ منهم مقعده المعتاد، خالد إلى جانب فادي، وليلى إلى جانب وفاء، وسمير إلى جانب لُبنى. وبعد الانتهاء من واجب ضيافة ما قبل العشاء، قال خالد: يا أختي العزيزة وفاء، ويا زوجتي الحبيبة ليلى، أستميحكما عذرًا لأنّنا كتمنا عنكما، أنا وصديقي العزيز فادي، سبب لقائنا هذا، لنرى وقع المفاجأة عليكما.

فقالتا معًا: إن كانت مفاجأة سارّة، فسنصفح عنكما، وإلّا فسيكون لنا موقفٌ آخر.

فقال خالد: سأتحمّل المسؤولية، أنا وحدي، لأنّها كانت رغبتي. فيا أخي وصديقي وشريكي، فادي، بعدما ترافقنا على مقاعد الدراسة ردحًا من الزمن، وتوافقنا على العمل معًا، وكان أن أسّسنا، منذ عقود، شركتنا برأسمالٍ متواضعٍ. ولكنَّ ما استمسك به كلٌّ منّا، تُجاه الآخر، من الإخلاص والثقة التامّة، وحفظ العهد والأمانة، وصدق التعامل فيما بيننا ومع الآخرين، مكّننا من الوصول بها إلى المراتب الأولى بين أكبر شركات بلدنا.

ويوم أراد كلٌّ منّا الزواج، كافأه الله تعالى بزوجة صالحة دعمت مسيرتنا، لا في العمل فقط، بل أيضًا في أن تعيش

عائلتانا كأنهما واحدة. ثم وهبني وحيدي الحبيب، سميرًا، وبعده أهدى إليكما أرقّ وأجمل الزهرات، حبيبتنا لُبنى. واليوم جاءني قُرّةُ عيني، سميرٌ، بخبرٍ كنت دومًا أحلم في سماعه. خبرٌ يسعدُ عائلتينا ويجعلهما عائلة واحدة، بإذن الله.

وعلى الرُّغم من أنّ غصّة السعادة أوقفته قليلًا عن الكلام، فقد بقي صمت الانتظار ملازمًا الجميع. إلى أن تمكّن خالد من متابعة الكلام قائلًا: أجل لقد أعلمني بأنّه والحبيبة لُبنى قد تعاهدا على الزواج فور تخرجها في الجامعة.

فكان، أول ردّات الفعل، عناق ليلى ووفاء، والدموع تملأ عينيهما، وتلاه أن ضمَّ سميرٌ لُبنى إلى صدره، وتشابكت يدا خالد بيدي فادي.

وبعدما انتهى الجميع من المباركات، كلٌّ على طريقته، وقفت وفاء وقالت: يا أخي العزيز خالد، شكرًا لك على هذه المفاجأة التي أسعدت قلوبنا جميعًا. والآن فإنّي أرى «التبّولة» شاخصةً نحونا تنتظر أن نلحق بها.

فقال خالد: ولكن أرجو يا أخت وفاء، أن تستمهليها بعض الوقت، لأنّ لديّ كلامًا آخر ينتظر أن يجري على لساني، قبل تذوق طعامك الشهي.

فقالت وفاء: عساه خيرًا، إن شاء الله.

قال خالد: أعلمني اليوم سميرٌ، أيضًا، بنيته السفر إلى الولايات المتحدة الأميركية لاستكمال الدراسة في إحدى جامعاتها. كما أنّه قد تسلّم بالأمس جوابًا بقبول انتسابه إليها. وهذا يعني أنّه سيبتعد عنّا جميعًا لما لا يقل عن السنوات الثلاث. ويبدو أنّه قد توافق مع الحبيبة لُبنى على ذلك. فماذا ترون في أن نبدّل بعض الشيء في ترتيب الأولويات؟

قال فادي: هات ما عندك يا صديقي، فكلُّنا آذانٌ صاغية.

قال خالد: أقترح أن يكون زاوجهما أول الخطوات، فيكونا معًا وتُكمل حبيبتنا لُبنى دراستها في الجامعة عينها إن أمكن.

قال فادي: هذا أمرٌ يعود القرار فيه إلى صاحبة الشأن. وعلى الرُّغم من أنّنا سنفتقد وجودها بيننا تلك السنوات، فأنا لا مانع لدي. وأظنّ أن زوجتي الحبيبة تشاركني الرأي نفسه.

فقالت وفاء: أجل يا زوجي الحبيب، فأنا أوافقك الرأي.

فقال سمير: هذه غاية مُناي. وثقي، يا حبيبتي لُبنى، بأنّني سأكون سعيدًا جدًّا بذلك. وأتعهد أمام الجميع، بأنني سأكون لكِ الزوج والحبيب والأب والصديق مدى العمر، ولن يفرّق بيننا شيء غير الموت. فإن لاقى اقتراح أبي ارتياحًا في نفسكِ، فمع صباح الغد سأبدأ بمراسلة الجامعة للحصول على جوابهم بقبول انتسابك إليها. كما سأكلف صديقي يوسف، الذي يتابع دراسته فيها أيضًا، لمتابعة الأمر.

فقالت لُبنى، وقد امتزجت على وجهها علامات الحياء بإشراقة الحب: عذرًا يا والديّ الحبيبين، فقد وضعني اقتراح عمّي العزيز خالد، أمام خيارٍ ليس سهلًا. فلذا سأقول لحبيبي، الذي لم أفترق عنه يومًا منذ ولادتي، إنّه يسعدني ألّا أبتعد عنك يومًا واحدًا، وكذلك حالي تجاه والديّ، فإذا وعدتني بألّا تقبل أيّ عرض عمل يفرض عليك الاستقرار في أي بلدٍ غير بلدنا هذا، فلا شيء يمنعني من مرافقتك.

فقال سمير: شكرًا يا حبيبتي لأنّني أعتبر شرطَك هذا موافقة مقنّعة على تقريب موعد خطواتنا الأولى في الشراكة على دروب هذه الحياة بحلوها ومرّها، لأنّك، أنت، على يقين تامٍّ بأنّ عودتنا أمرٌ محتّم ولا جدال فيه، إن شاء الله. فوالدانا وشركتهما بانتظارنا، أنتِ وأنا. ومهما كانت

العروض مغرية فلن نجد في الدنيا صدورًا وقلوبًا أفضل وأحبّ وأحنّ علينا من أبوينا ووالدتينا.

***

ويتمّ كلُّ شيء، كما رسموا له، على خير ما يرام. ويسافر العروسان إلى الولايات المتحدة الأميركية للالتحاق بالجامعة. ويعودان وبيدِ كلٍّ منهما الشهادة التي ابتعد عن أبويه نحوًا من السنوات الثلاث، للحصول عليها.

وبعد قضاء بضعة أيامٍ، لأخذ قسطٍ من الراحة وتأقلم جسديهما مع فرق التوقيت الزمني، في شقتهما التي كان قد اشتراها لهما والد سمير وأثثها بالتنسيق معهما، قبل عودتهما، تسلّم كلٌّ منهما مهام عمله في الشركة مع والديهما.

ولم يمضِ وقت طويل حتى بانت آثار لمساتِهما وأفكارهما وأساليب عملهما الحديثة، على نتائج نشاط الشركة في الأسواق. ومما نسجاه، أيضًا، من علاقات تجارية مع تجارٍ وصناعيّين ورجال أعمال أميركيين إلى جانب ما اكتسباه من العلم.

وفي أحد الأيام، دخل خالد على ابنه سمير في مكتبه، وقال له: يا بُني، لديَّ أمرٌ أرغب في محادثتك به وحيدين، لذا اطلبْ من السكرتيرة أن تؤجّل المكالمات الهاتفية ومراجعات العمل، إلى ما بعد انتهاء حديثنا.

ومن دون السؤال عن السبب أو الغاية، أبلغ سميرٌ السكرتيرةَ أمر والده. ثم قال له: أنا رهن الإشارة، يا أبتي.

فقال خالد: لقد مضى على زواجكما، أنت والحبيبة لُبنى، نحوًا من السنوات الخمس، وعلى عودتكما من الولايات المتحدة الأميركية ما يزيد عن السنتين، ولم نرَ بوادر قدوم حفيدنا أو حفيدتنا، فأرجو ألّا تكون متطلبات العمل في الشركة السبب في ذلك.

فقال سمير: لا يا والدي الحبيب، لا علاقة لظروف العمل في ذلك. وتأكّد بأنّ شوقنا له قد يزيد بأضعاف عن شوقكم، أنتما ووالدي لُبنى.

فقال خالد: وما المانع إذًا؟ لقد أقلقتني يا بني.

فقال سمير: بعد تخرّج لُبنى، أي قبل عودتنا بما يقارب العام، توقفنا عن اللجوء إلى وسائل منع الحمل، أملًا في أن يرزقنا الله بمن يكمّلُ عائلتنا الصغيرة. ولمّا لم تظهر علامات الحمل بعد مضيّ ما يزيد عن نصف السنة، استشرنا أحد الأطباء، فطمأننا بأنّ هذا قد يحصل مع بعضهن، وأنّ علينا الانتظار بضعة أشهر أخرى. وبعد عودتنا بنحو الشهر، ذهبت لُبنى مع والدتها لاستشارة طبيبتها د. حنان. وبعد إجراء الفحوص المخبرية، وصفت لها بعض العقاقير، وهي في معظمها من المقويات، لمدة ستة أشهر، على أن تكرّرها لستة أخر، وقد انتهت هذه منذ أيام، وغدًا موعد مراجعتها.

فنهض خالد عن كرسيه، وقال: سأعود إليك بعد قليل، فكلامنا لم ينتهِ بعد.

خروج خالد المفاجئ، ومن دون تعليق، أقلق سميرًا وأوقعه في حيرة من الأمر. وتشابكت أسئلة كثيرة في خلَدِه، من دون أن يجد لها أجوبة. وبقي على هذه الحال نحو نصف الساعة، أحسّها نصف شهر، إلى أن أعادته إلى الواقع عودة أبيه وقولُه له: اطلب من الحبيبة لُبنى أن تؤجّل، أو تلغي، موعدها مع الطبيبة حنان، فستذهبان بعد ظهر غدٍ لاستشارة أحذق المتخصصين في هذا الحقل في بلدنا، الطبيب فؤاد.

فقال سمير: أفهم من كلامك، أنّ عليّ الذهاب معها عوضًا عن والدتها.

قال خالد: أجل يا بني.

***

وبعد نحو الشهر، دخل سميرٌ ولُبنى على والده في مكتبه، وقال له: يا والدي الحبيب، لدينا ما نرغب في أن نتناقش فيه جميعًا، أنت والعم فادي ووالدتينا، فحبذا لو تأتيانا مساءً، أنت ووالدتي. وسنذهب بدورنا فورًا إلى العم فادي، لنطلب منه ذلك أيضًا.

فقال خالد: عساه خيرًا، سنكون عندكما في الثامنة، إن شاء الله.

بعد ذلك، غادرا مكتب خالد وتوجها إلى مكتب فادي، حيث أبلغته لُبنى الشيء نفسه. ولمّا اكتمل العقد في المساء، بادر سميرٌ بالقول: يبدو أنّ هناك ما قد يضطرّنا، أنا والحبيبة لُبنى، إلى السفر إلى لندن والمكوث فيها لما قد يزيد عن الشهرين أو حتى الثلاثة.

فارتسمت علامات الحيرة على وجهي فادي وخالد، وقالا معا: وما الداعي لهذا؟ أهو للعمل أم للمتعة؟

فقال سمير: نرجو منكم جميعًا، الإصغاء إلى ما سنقوله حتى النهاية، لتزودونا بالرأي الصائب. لقد ذهبنا اليوم إلى عيادة الطبيب فؤاد، بعدما كانت قد تكررت زياراتنا له بضع مرّاتٍ منذ الموعد الأول الذي ضربته لنا معه يا أبي، فقد أعطانا اليوم خلاصة نتائج الفحوص المخبرية والصور الشعاعية وغيرها، والتي كانت، للأسف، كلّها سلبية. وقد أشار علينا السفر إلى لندن لإجراء عملية التلقيح الاصطناعي، بما يعرف بطفل الأنابيب، وهذا ما سيستدعي بقاءنا هناك تحت المراقبة الطبية لتثبيت الحمل لما بين شهرين أو ثلاثة. وإن سار كل شيء على ما يرام فيمكننا أن نعود بعده لتتم الولادة في أحد المستشفيات برعاية وحنان أفراد عائلتينا. وإلّا سنضطر إلى البقاء هناك حتى ما بعد

الولادة. وسيقوم هو بتزويدنا بتقريرٍ مفصّلٍ عن حالتنا، فور تبلّغه قرارنا بالسفر. كما سيقوم بمراسلة المستشفى المختص في لندن والطبيب الذي يرى فيه الكفاءة والثقة لذلك، ولترتيب المواعيد.

ثم **أضافت لُبنى قائلةً**: وهذا ما أوحت به إلينا، أيضًا، الطبيبة حنان، يوم زرناها أنا ووالدتي، بعد زيارتنا الأولى للطبيب فؤاد بيومين، بعد تأجيل موعدنا الذي كان في ذلك اليوم عينه، وبناءً على إشارتك يا عمّاه. أتذكرين ذلك يا أمّاه؟

فقالت وفاء: أجل هذا صحيح يا بنيتي، وقد أبلغت أختي ليلى بذلك في حينه. وكتمناه كما طلبتِ لحين معرفة رأي الطبيب فؤاد.

فكان أن توافق الجميع على ضرورة سفرهما في أقرب وقت، وأن ترافقهما وفاء لتكون بجانب ابنتها في مدة الحمل.

***

سبعة أيّامٍ كانت كافية للحصول على تأشيرة الدخول إلى المملكة المتحدة، وعلى تقرير الطبيب فؤاد، الذي ضرب لهم، أيضًا، موعدًا مع زميله وصديقه، الطبيب توماس في لندن.

لم تدم إقامتهم في لندن لأكثر من ثلاثة أشهر، عادوا بعدها خاليي الوفاض. وفي صباح اليوم التالي لوصولهم، عندما بلغ خالدٌ مدخل شركته، وبعدما ألقى التحية، كعادته، على الحارس ثم على من كان خلف مكتب الاستقبال، توقف أمام هذا المكتب وسأل عن ابنه سمير وزوجته وشريكه فادي. فقيل له بأنّ الأستاذ فادي وصل منذ دقائق وهو الآن في مكتبه، أمّا الدكتور سمير والأستاذة لُبنى فلم يأتِيا بعد. فقال لهم: أبلغوهما أن يلتحقا بنا، في مكتب الأستاذ فادي.

ولمّا دخل مكتب شريكه، وبعد إلقائه تحية الصباح، قال: يا صديقي وشريكي العزيز، منذ زمن بعيد لم نشرب قهوة الصباح معًا، فهل لديك الوقت لذلك؟

فقال فادي: وهل هناك ما هو أهمّ وأحبّ على قلبي من لقائك يا صديقي؟ اجلسْ وسأطلب إحضار قهوتك إلى مكتبي.

وبعد أول رشفةٍ من القهوة، قال خالد: هل أوضحَت لك الأخت وفاء تفاصيل إضافية عما جرى في لندن، زيادة عما أعلمونا به هاتفيًا قبل مجيئهم؟

قال فادي: لمّا سألتها عن ذلك، قالت بأنَّ عند سميرٍ ولُبنى الخبر اليقين.

قال خالد: إذًا، فلننتظر قليلًا، فقد طلبت من مكتب الاستقبال إبلاغهما، حين وصلوهما، أن يلحقا بي إلى هنا.

وبعد بضع دقائق، دخل سميرٌ ولُبنى مكتب فادي. وبعدما عانق كلٌّ من فادي وخالد، ولديهما وأخذ كلٌّ مقعده، وانتهى من تناول قهوته، قال خالد: يا ولدينا الحبيبين هل لكما أن تزيداننا إيضاحًا عن حصيلة سفرتكما إلى لندن؟

قال سمير: بعد فشل ثلاث تجارب تحت إشراف لجنة من الأطباء المتخصصين، أُبلِغْنا بأن الأمل في الحمل شبهُ مستحيلٍ. وقد لمّح أحدهم بأنْ لم يبقَ أمامنا سوى الاستعانة بأمٍّ بديلة.

قال فادي: لقد سمعت عن هذا الأمر ولكنّي لا أعلم شيئًا عن تفاصيله.

فقالت لُبنى: مختصر ذلك يا أبي، هو ما يعرف بـتأجير الرحم، كما يعرف أيضًا بالحمل البديل. وهو عبارة عن حل طبي يتم اللجوء إليه لمساعدة النساء غير القادرات على الحمل والولادة بسبب مشاكل صحية. فتتمُّ

عملية الإخصاب خارج الجسم بالتلقيح الاصطناعيّ لبويضة أو أكثر من المرأة، بماء زوجها في المختبر، ثمّ تُزرع واحدة أو أكثر من تلك البويضات المخصبة، في رحم امرأة متطوعة لتنمو وتستكمل فترة الحمل. وفي هذه الحالة يطلق على المرأة صاحبة الرحم اسم «الأم البديلة» بينما تكون صاحبة البويضة هي الأم البيولوجية. وعندما تلد الأم البديلة تسلّم الطفل إلى الزوجين؛ مقابل مبلغ متفق عليه، وقد يكون من دون مقابل أيضًا. ويُجمع الأطباء على أن هذه العملية آمنة على صحة المرأة والجنين ولا توجد فيها أيُّ مشكلة.

قال فادي: وهل حصلتما على المعطيات والتفاصيل اللازمة، لإجراء الدراسة المعمّقة كما عودتمانا في دراسة مشاريع أعمال الشركة؟

قال سمير: لا ليس لدينا منها ما فيه الكفاية، يا عمّاه، فهناك أمورٌ قانونية وإنسانية علينا أن نتحقق منها، لنتمكن من اتخاذ القرار الصائب. وبالإضافة إلى ذلك فلدينا الكثير من الأسئلة والتحفظات في النواحي الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية.

فقال فادي: أقترح، إذًا، إشراك محامي الشركة، الأستاذ نديم، معنا في هذا الأمر، لما لديه من الخبرة الطويلة في الشؤون القانونية بمعظم جوانبها، فماذا تقولون؟

قال سمير: لا مانع لديّ إن وافقت أيضًا الحبيبة لُبنى. كما أنّي سأطلب من صديقي فريد، أن يسأل والده، الأستاذ سامي، عن رأي الأديان حيال هذا الأمر. فمنذ تقاعده وهو يقوم بالأبحاث في الشؤون الدينية، وبطريقة موضوعية وعلى أسس علمية ومنطقية.

وبعد موافقة خالد ولُبنى، قال فادي: إذًا سأطلب من الأستاذ نديم الحضور في مثل هذا اليوم والساعة من الأسبوع المقبل، فيكون لديه متّسعٌ من الوقت لتحضير النصوص والاجتهادات القانونية؛ ولدى الحبيب سمير ما يكفي للحصول على رأي والد صديقه فريد. كما أقترح حضور ليلى ووفاء.

***

وفي الموعد المضروب، أُغلق باب غرفة الاجتماعات في مكاتب الشركة، بعدما اكتمل عقد الذين اقترح فادي حضورهم. وبعد الترحيب بالأستاذ نديم، طلب فادي وخالد من سمير ولُبنى أن يتولّيا النقاش مع الأستاذ نديم.

فقال سمير: أظنّ أنّ العمّ فادي قد أوضح لك الغاية من اجتماعنا هذا، أليس كذلك يا أستاذ نديم؟

قال نديم: أجل، وأنا على استعداد للإجابة على أسئلة الجميع.

قال سمير: هل هناك نصوص قانونية ترعى الاتفاق بين الزوجين، من جهة، ومن تقبل بأن تحضن بويضة الزوجة الملقحة من زوجها، من جهة أخرى؟ وما هي آلية تنظيم هذا الأمر؟

قال نديم: إنّ النصوص الدينية تُعتبرُ أسس قوانين الأحوال الشخصية في معظم البلاد العربية، فهذا يعني أنّها لا يجوز أن تتعارض هذه القوانين مع التعاليم الدينية. وقد تبيّن لي أن هذا الأمر تحرّمه المسيحية والإسلام. فقد صدر قرار من مجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العلم الإسلامي في دورته الخامسة سنة 1402هـ بتحريمه. كما صدر قرار من مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي في مؤتمره الثالث سنة 1407هـ بتحريمه أيضًا. والشائع

تحريمه أيضًا عند علماء الأزهر. كما تحرّمه جميع الكنائس لتنافيه مع مبدأ الأمومة، وهناك من سمح به من البروتستانت غير أن الفاتيكان ما يزال يرفضه ويرى أنه عملُ غير أخلاقي.

قال سمير: وقد سألت، بدوري، السيد سامي، والد صديقي فريد، عن هذا الأمر، فقال: لقد سبق لي أن طرحت هذا الأمر على أحد المراجع الدينية، المشهود له بالاعتدال ورجاحة العقل[1]، فزودني بصورة نص جوابه حرفيًّا. سأتلو عليكم ما جاء فيه:

«وصلتني رسالتك التي تتضمّن السؤال عن مسألة (تأجير الرّحم) أو ما سمّي بالأم البديلة. وهي من المسائل المستحدثة في عصرنا، وقد تصدّى لبيان حكمها الشّرعي جمعٌ من علماء الشريعة. والرّأي الفقهي الّذي تساعد عليه النّصوص الدينيّة هو القول فيها بالتّحريم والبطلان.

«ولا يتّسع المجال لذكر جميع النّصوص الدالة على ذلك، وعلى سبيل الاختصار نقول: إن مسألة تأجير الرّحم تخالف المستفاد من الكتاب والسنّة في لزوم حفظ الفروج، وقد ورد في القرآن الكريم في عدة آيات منها قول الله تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾. وهذا المعنى من لزوم حفظ الفرج وصيانته هو مؤّدى ما ورد أيضًا في أحاديث السُنّة النبويّة، منها: (الفرج أمانة) وقد استفاضت الأحاديث الدالة على حرمة وضع الرجل نطفته في رحمٍ لا تَحِلُّ له، وفي بعضها (أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة رجلٌ أقرّ نطفتَه في رحمٍ لا تحلُّ له).

[1] هو العلامة المجتهد، سماحة السيد علي الأمين، وهو مشهود له بسعة العلم والاطلاع والبحث المنطقي والاعتدال ورجاحة العقل.

«والمستفاد من القرآن الكريم أيضًا أن عناوين الأمومة والأبوّة والبنوّة ليست من الأمور الّتي تنالها العقود التجاريّة، وإنّما هي من العناوين الّتي تنتزع وتتولّد من أسبابها الحقيقيّة والشّرعية. فلا تكتسب صاحبة البويضة الّتي تمّ تلقيحها صفة الأم بدون أن تكون هي الّتي حملت ووضعت، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾.

«فإنّ المفهوم من هذه الآيات وغيرها أنّ الّتي تحمل عنوان الأم هي التي حملت ووضعت. وهذا المعنى هو ما نصّت عليه كتب اللغة أيضًا، وقد جاء فيها أن ضابط الأم هي كل من ولدتك فهي أمك حقيقة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى البنوّة والأبوّة، كما في قوله تعالى: ﴿.. وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ..﴾. هذا ما تيسّر بيانه والله سبحانه وتعالى هو الأعلم.»

هذا وقد أضاف الأستاذ سامي قائلًا: «وإذا أنعمنا النظر والتفكير جيدًا في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ*﴾[1]، لفهمنا من عبارة ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، أنّ في الأمر حكمةً ليس بمقدورنا، نحن البشر، إدراكها.»

كما زودني، أيضًا، بنص الحديث النبوي الذي ورد في جواب المرجع الديني المذكور، وهو: «مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشرْكِ بالله أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ

[1] (الشورى 49-50).

لاَ يَحِلُّ لَهُ». (136 من صحيح مسلم)، و(18777 من جامع المسانيد والمراسيل).

قال نديم: ولكنّ من واجبي أيضًا أن أضيف بأن بعض الدول الغربية، تسمح به، وقد وضعت له شروطًا قانونية.

قال سمير: آمل، يا أستاذ نديم، أن نجد في تلك الشروط، ما يضع حدًا لما يشغل تفكيرنا، أنا وحبيبتي لُبنى، منذ عودتنا من لندن، من الأسئلةٌ التي احتشدت في مخيلتنا، بشكل عشوائيّ، ولم نجد لها أجوبةً تجعلنا نتقبّل هذا الأمر. أطرحها أمامكم:

ما هي ضمانة التزام الأم الحاضنة بشروط الاتفاق؟

وماذا يحصل لو رفضت تسليمنا المولود؟

وألا يجوز أن تطالب بالولد بعد مدة من الزمن؟ وإن كانت سيئة النيّة، أفلا نصبح فيما بعد عرضة للابتزاز من قبلها؟

إذا علم المولود بالأمر في المستقبل، فأيهما سيعتبرها أمّه؟ أو هل سيكون له أمّان؟ وأي صراع نفسي سيواجه في داخله عند ذلك؟

وإذا بقي الأمر سرًّا، ألا يمكن أن تنشأ علاقة حبّ بينه وبين أحد أبناء «الأم الحاضنة»؟ وإذا تزوجا أفلا يكون ذلك كزواج الأخ بأخته؟ وإذا كانت الرضاعة تحرّم الزواج، فماذا سيكون حال اثنين نما كلٌّ منهما، في رحم امرأة بعينها، وحملته في أحشائها حتى الولادة؟

وإذا كانت البويضة ليست للحاضنة بينما كان غذاء الجنين من حبلها السري، فأيّ المرأتين هي الأمّ قانونًا؟ وما هو الرابط بين هذا المولود وأبناء الحاضنة، إن وَلدَت فيما بعد، إمّا من زواج، أو من تأجير رحمها ثانية؟

ولماذا حرّمت الأديانُ الزنى؟ ألا يعني هذا أنّه تنفيذٌ لمشيئة الله تعالى، في منع اختلاط أنساب أبناء الإنسان، الذي فضله عن سائر مخلوقاته؟

وماذا يمكن أن يسمّى وضع منيّ الرجل في رحم امرأة غير زوجته؟ ألا يعتبر نوعًا من الزنى المقنّع؟ وكيف ستكون نظرة المجتمع، في شرقنا، إلى تلك «الحاضنة»، إن كانت شرقية؟

وكيف ستتغلب، تلك «الأمّ الحاضنة»، على غريزة الأمومة بعدما حملت الجنين في أحشائها تسعة أشهر، وتابعت نموَّه وتحركاتِه في أحشائها، لحظة بلحظة؟ ثمَّ على ذلك الشعور بعد ولادته، بأنها هي التي أعطته الحياة؟

وما هي مواصفات الحاضنة؟ متزوجة؟ مطلقة؟ بكر؟ عمرها؟ فقيرة؟ وهل ستحرم الزواج ما دامت حاملا؟

وما هو تعريف الأم قانونًا؟ فهل يختلف عن التعريف الديني، كما بيّنه جواب المرجع الديني على سؤال السيد سامي؟

وهل يمكن اعتبار تأجير أو إعارة الرّحم، من قبيل الحرية الشخصية في التصرف بالجسد؟ وأليس لهذه الحرية حدودٌ؟ وإلّا لما كان الله تعالى قد حرّم الانتحار.

وألا يمكن أن يكون، ايضًا، بابًا جديدًا للمتاجرة بالأطفال؟ ولاستغلال النساء الفقيرات؟ وهل يختلف كثيرًا عن بيع الأعضاء الجسدية لتأمين الموارد المالية للمعيشة؟

ثمَّ، لو سلّمنا جدلًا أنّ هذه العمليّة قد تمّت في إحدى الدول التي تسمح بذلك، فما هو مصير أيّ خلافٍ، بين الحاضنة والزوجين، في بلادنا العربية؟ ففي ظلّ أي القوانين سينظر القاضي في ذلك النزاع، ما دام ليس فيها قوانين خاصّة بهذا الأمر؟

قال نديم: إنّها، حقًّا، أسئلة منطقية وفي غاية الأهمية، ولكن أرجو أن تصغوا إلى ما سأوجزه عن بعض ما ينصُّ عليه القانون المدني في مقاطعة كيبيك الكندية، كنموذجٍ عن سائر قوانين الدول التي تبيح هذا الأمر، أتمنى أن تجداً فيه، يا عزيزيّ لبنى وسمير، اجوبة على أسئلتكما هذه: «لا يعتبر جرمًا للأم الحاضنة، أي المرأة التي تقبلُ بأن تحمل في أحشائها طفلًا على أن تعيده بعد الولادة إلى الأمّ، صاحبة البويضة الملقحة اصطناعيًا في المختبر. ولكن ما يعتبر جرمًا يعاقب عليه ذلك القانون هو، أن تتقاضى هذه الأم الحاضنة، بدلًا أو تعويضًا ماليًّا. أو أن يُطلب مثلُ ذلك الحمل، من امرأة يقلُّ عمرها عن إحدى وعشرين سنة. كما ينصُّ هذا القانون، عينه، صراحةً على البطلان التّام لأية اتفاقية تُلزم المرأة أن تحمل اصطناعيًّا، أو أن تحضن طفلًا لمصلحة شخصٍ آخر. بمعنى آخر، فإنّ أيّة اتفاقية مع أمٍّ حاضنة ليس لها أيّة مفاعيل أو قيمة قانونية، في مقاطعة كبيبك، إذ يحقُّ للمرأة الحاضنة أن تحتفظ بالطفل المولود، إن شاءت، كما يجوز للأشخاص الذين طلبوا هذه الخدمة من الأم الحاضنة أن يتنازلوا عن مطالبتهم بالطفل. وبالتالي، وبموجب هذا القانون، فإنّ الأم الحاضنة تكون هي الأم الحقيقية للطفل ولا يمكنها أن تتخلّى عن هذه الصفة إلّا إذا تمّ تبني الطفل لاحقًا.»

قال سمير: شكرًا لك أستاذ نديم، فقد استخلصتُ، مما قرأتَه علينا، الأجوبة الكافية على معظم تساؤلاتنا، فوضعتَ حدًّا لحيرتي، وجعلتني قادرًا على اتخاذ القرار النهائي في هذا الأمر. فماذا تقولين حبيبتي لبنى؟

قالت لبنى: أجل يا حبيبي، فقد أجاب الأستاذ نديم على أهمّ النقاط القانونية التي كنّا نبحث عنها.

ثم انتصب سميرٌ على قدميه، وأمسك بيد زوجته، التي وقفت بدورها إلى جانبه، فضمّها بين ذراعيه، وقال: إنّني راضٍ كلّ الرضى بما قسم لي ربّي، ولن أعارض مشيئته هذه ما حييت. وإذا كانت الثروة بحاجة إلى من يرثُها من بعدنا، فكنوز الدنيا كلّها لا تساوي عندي ابتسامة محبةٍ ورضًى على شفتي زوجتي وشريكة حياتي، الحبيبة لبنى، وسأبقى على عهدي لها الذي قطعته على نفسي أمامكم، بأنّ الموت وحده هو الذي يمكن أن يفرّق بيننا. وإذا كان الشرع، كما يزعمون، يسمح لي بأن أتزوج امرأة ثانية، فلن أسمح لأيّ فعلٍ أو مخلوقٍ بأن يخدش شعور حبيبة عمري، فأنا لها وحدها، كما هي لي وحدي.

ثم توجه بالكلام إلى والده ووالد زوجته قائلًا: وإن كنّا قد حُرمنا من الخلَف، فهذا لا يعني أن الثروة التي جمعتماها، ستذهب هباءً، فهناك العديد من الأطفال من أبناء وطننا، من هم بحاجة إلى من وما يعينهم في تحضير مستقبلهم. ومن الغد سنبدأ، أنا ولبنى، بدراسة مشروعٍ خيريٍّ يجعلنا وَالدَين روحيين لمئات الأطفال، ويجعلكما ووالدتينا، أجدادًا لهم. وسنعرضه عليكم بعد انتهائنا من دراسته، فإن حضِيَ بموافقتكم ومباركتكم، فسنبدأ بتنفيذه فورًا.

حكمة زوج[1]

في أوائل سبعينيّات القرن العشرين، كان سامي، في أوائل العقد الرابع من سنوات العمر، حين جمعته الأقدار يومًا بدانية في منزل فادي، وزوجته فداء، اللذين كانا من أعزّ أصدقائه. ثم تكرر ذلك اللقاء مرات عدة وفي مناسبات وأماكن مختلفة. ولم يكن أيٌّ منهما يعلم، يومها، أنّ تلك اللقاءات كانت مدبرة من ذينك الصديقين، ما اكتشفاه بعد زمن.

دعاها يومًا إلى الغداء في أحد المطاعم. وتكررت بعد ذلك لقاءاتهما منفردين. وبعد نحو الشهرين من لقائهما الأول، قال لها: إنّني لم أزل بعد عازبًا، كما ترين، ولكنّني بصدد البحث عن الفتاة التي ستكون شريكة حياتي. فإن لم يكن لديك أيّ ارتباط آخر، فما رأيكِ في أن تكون لقاءاتنا التالية وكأننا في فترة خِطبةٍ غير معلنة، فيدرس كلٌّ منا أخلاق وصفات الآخر، إلى أن يأخذ قراره، فإما الفراق كصديقين أو العيش معًا تحت سقفٍ واحد؟

قالت: لا بأس، ولكن آمل ألّا تمتد هذه الفترة لأمدٍ طويل، ما قد يعرضني ل«لقيل والقال»، بمفهوم مجتمعنا.

قال: أعدكِ بذلك.

ولم تمضِ ثلاثة أشهر على ذلك الوعد، حتى أصبحا زوجين يعيشان في مسكنهما الخاص. وكان زواجهما مما يُطلق عليه الكثيرون، اسم «زواج العقل».

---

[1] قصة من الواقع عرفت أشخاصها بنفسي. أما الأسماء فهي مستعارة.

وبعد مدة قالت له دانية: ما رأيك يا زوجي العزيز، في أن نستعين بخدمات امرأةٍ ممن يعملن في تنظيف المنازل، ولو مرةً في الأسبوع؟

فأجابها سامي: بالتأكيد، لا مانع لدي.

فقالت: إنّني أعرف واحدة منهنّ، تُدعى سعيدة، كانت والدتي تستعين بها من حين إلى آخر، وكذلك تفعل صديقتي ليلى، التي أكدت لي بأنّها أمينة، وأنها كثيرًا ما كانت تتركها وحيدة في المنزل، لقضاء بعض حاجاتها خارجه، وأنّها لم تفقد، يومًا، شيئًا من موجودات منزلها. كذلك أكدت لي والدتي بأنّها لم تلحظ عليها أيّ إشارة تدلّ على سوء الائتمان.

فقال سامي: لا بأس، بإمكانك أن ترسلي في طلبها متى شئتِ، فأنتِ ربةُ هذا المنزل.

وفي أحد الأيام، وبينما كانت سعيدة تقوم بعملها في المنزل، قالت لها دانية: سأذهب الآن لقضاء بعض الحاجات، وسأعود قبل أن يعود زوجي للغداء. وإن سمعت جرس الهاتف فأرجو أن تجيبي وتسألي عن اسم المتصل. وقد كانت شبكة الهاتف الآليّ، حتى أوائل تسعينيات القرن الماضي، وسيلة التواصل الوحيدة بين الناس في لبنان.

ولكن، بعدما أنهت مهامّها، وكانت قريبة من مركز عمل زوجها، وقد قارب وقت عودته إلى المنزل، عرّجت دانية على مكتبه ليعودا معًا.

وبعدما اجتازت قدماهما عتبة المنزل وألقيا التحية على سعيدة، سألتها دانية عما إذا كان أحدهم قد سأل عنها هاتفيًّا؛ فأجابتها قائلة: أجل لقد اتصل سميرٌ طالبًا محادثتكِ.

فقالت دانية: أمتأكدة أنتِ أنّه طلب محادثتي أنا أم زوجي؟

قالت سعيدة: بل طلب محادثتكِ أنتِ.

فنظرت دانية إلى زوجها، لتقول له بأن في الأمر خطأً ما أو سوء فهم؛ فإذا بها تراه غير مبالٍ، وكأنّ الأمر لا يعنيه.

وفي الأسبوع التالي، أتت سعيدة صباحًا كالمعتاد، ولم يكن سامي قد غادر المنزل بعد. ولمّا جهزت دانية للخروج معه، قالت لسعيدة: نحن مدعوان إلى الغداء لدى أحد أصدقائنا، وسيصحبني زوجي بسيارته إلى السوق، لأنتقي هديّة للمناسبة، وبعد ذلك سألتحق به في مكتبه لنذهب معًا، وسنعود إلى المنزل قبل أن تُنهي أنتِ عملك.

وفور عودتهما بادرت دانيةُ بسؤالها المعتاد عن المكالمات الهاتفية، فأجابتها سعيدة قائلة: أجل لقد اتصل اليوم أيضًا، سمير نفسه طالبًا التحدث إليكِ.

وقبل أن تنطق دانية ببنت شفة، فُوجئت بسامي وهو يمسك سعيدة من يدها ويجرّها إلى حيث جهاز الهاتف، ويرفع السماعة ويضعها على أذنها ويسألها عما إن كانت تسمع أي صوتٍ. ثم ينحني قليلًا ويمسك بسلك الجهاز ويضعه أمام عينيها ويردف قائلًا: أترين؟ الجهاز مفصولٌ عن الشبكة، فمن أين جاءتكِ تلك المكالمة؟

عندئذٍ، ثارت ثائرة دانية وصرخت في وجهها قائلةً: ماذا دعاك إلى هذا الكذب؟ أتريدين أن تخربي بيتي؟ فلماذا فعلتِ ذلك؟ ومن دفعكِ إليه؟

ولما حاولت الاقتراب منها وقف سامي بوجهها وضمها بين ذراعيه وهدّأ روعها. عند ذلك جثت سعيدة على ركبتيها تطلب منهما المعذرة وتقسم بأنّها لم تكن تريد أذيّة السيدة دانية، وأنّ جلَّ ما في الأمر أنّها اختلقت هذه الكذبة كي لا تبقى وحيدة فتسئمها الوحدة.

فصاحت بها دانية قائلة: اذهبي إلى الجحيم لا أريد رؤيتك بعد اليوم. وطردتها شرَّ طردة. وبعدما رمت لها، أرضًا، أجرها وما يخصها من متاع، صفقت باب المنزل خلفها بقوة فكان لذلك صوتٌ كدويّ انفجار قنبلة. ثم ارتمت على صدر زوجها باكية والدموع تسيل من مقلتيها وهي تردد: شكرا لك يا إلهي وشكرا لك يا زوجي الحبيب. فضمّها سامي ويداه تمسحان دموعها ورأسها، إلى أن هدأت واستعادت رشدها. فسألته قائلة: بالله عليك، كيف ومتى فصلت الجهاز عن الشبكة، ولماذا؟

قال: لقد قمت بذلك على غفلة منكما صباحًا قبل مغادرتنا المنزل. أمّا لماذا؟ فقد خالجني إحساسٌ داخليٌّ، في الأسبوع الفائت، بأنها كانت تكذب، فرغبت في أن أبيّن كذبها لأستأصل بذور الشكّ من نفسكِ قبل نفسي. كما أنّ دعوتنا إلى الغداء في منزل صديقينا فادي وفداء، كانت بإيحاءٍ مني إليهما.

قالت: أقلتَ من نفسي أنا أيضًا؟

قال: أجل. فهناك احتمال، ولو ضئيلٌ جدًّا، أن تأوّلي يومًا، كلامًا أو فعلًا قد يصدُر عنّي، وعن غير قصدٍ، بأنّه ناتج عن شكٍّ يساورني في سلوكك.

قالت: وماذا عنك أنت؟

قال: أنا إنسانٌ، وكل إنسانٍ معرضٌ للخطأ، وما الكمال إلّا لله تعالى؛ فقد يصدر عنّي، في ساعة غضبٍ، كلامٌ ينمُّ عن ومضةِ شكٍّ في بعض سلوكك. هذا ومن عادتي، أنّي في كلِّ مرة أسمع فيها نبأ فيه بعض الشرّ، أسترجع دومًا، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1].

[1] (الحجرات 6).

عندئذٍ، ضمّته بشدة وقالت: الآن فهمت يا حبيبي، سبب تجاهلك كلام تلك المرأة اللعينة في الأسبوع الفائت، كما عرفتُ سبب ذلك الحدس الذي كان يُشعرني دومًا، إبّان فترة تعارفنا القصيرة، بأنّك ستكون أنت قدري في هذه الحياة. أدامك الله لي سندًا مدى العمر، بحلمك وعقلك الراجح.

حين يسقط القناع[1]

يروى أنّ رجلا، يُدعى حامدًا، جاء يومًا، صديقَه سامي، وقد اعتاد أن يستشيره حتى في أموره الخاصة؛ وقال له: يا صديقي، لقد جمعتني رفقة العمل منذ بضعة أشهر، برجلٍ يُدعى «فؤاد بن سعيد» وهو في الثلاثينيات من سنوات العمر ما يعني أنّه يصغرني بنحو العقدين من الزمن، وقد أثبت حتى اليوم النشاط والإخلاص والدقة في عمله، ولم يرَ أحدٌ منه مكروهًا. وبحكم تلك الرفقة فقد ربطت بيننا رابطة الاستلطاف والمودة، ما جعلنا نتحادث، في أوقات الفراغ، في كثيرٍ من الأمور. وقد عرفت منه أنّ أباه سعيدًا هو ابن بلدتك، وقد انتقل للعيش والاستقرار في العاصمة، مذ كان فؤاد في عمر المراهقة، كحال الكثيرين من أبناء الأرياف، سعيًا وراء الرزق، بعد ازدهار الصناعة على حساب الزراعة.

ومنذ بضعة أيام أطلعني على دراسة موجزة لمشروع تجاريّ رأيت فيه نسبة جيدة لإمكانيّة النجاح والنتائج المربحة. وقد عرض عليّ المشاركة، أنا بالمال وهو بالعمل، ولمّا كانت معرفتي به غير كافية جئتك طالبًا المشورة الصادقة التي عهدتها منك دومًا، وبما لك من الحكمة والخبرة في الأعمال والأشخاص.

وبعدما اطّلع سامي على تفاصيل المشروع قال لحامد: يبدو لي أنّ المشروع لا بأس به كما قلت. ولكنّني لا أعرف شيئًا عن فؤادٍ هذا ولا عن أبيه سعيدٍ، وحتى لو عرفت والده، فقد يكون الابن عكس أبيه، ومعرفة الشريك والتحقق من أنّه

[1] حكايتان من واقع الحياة، ولكن بأسماء مستعارة.

موثوقٌ ويحفظ الأمانة والعهد، أمورٌ أساسيّةٌ جدًّا في الشراكة قبل الخبرة والمقدرة في العمل. والثقة في أمرٍ كهذا، يجب أن تكون كاملةً غير منقوصة.

فقال حامد: ولهذا جئتك يا صديقي.

فقال سامي: نصيحتي لك يا صديقي ألّا تعجل في اتخاذ القرار قبل التحقّق من طِباع وأخلاق ذلك الرجل. وجلّ ما أستطيعه الآن، إن شئت، هو أن أروي لك حكايتين مما علمتني الأيام، عساهما تعيناك في كشف خفايا نفس فؤاد هذا، برصد ما قد يصدر عنه بشكلٍ عفويٍّ ينمّ عنها، كحركة عفوية أو كلمة أو ردة فعل.

قال حامد: لا أذكر، يا صديقي، أنّي سمعت منك يومًا، حكاية أو قصّة لم يكن فيها عبرةٌ أو مغزًى، فكلّي آذانٌ صاغية.

قال سامي:

الحكاية الأولى:

يوم كنتُ في الخمسينيّات من سنوات العمر، جمعتني الأقدار برجلٍ في مثل سنّي يُدعى فريدًا. وكنّا يومها، كما تعلم، أنا وعائلتي نعيش خارج البلاد، حيث كثيرًا ما تفرضُ علينا قلّةُ عدد أبناء وطننا، صحبةَ أناسٍ لا نعرف عنهم سوى أسمائهم. وقد كانت امرأته سيدة فاضلة، ما ولّد، أيضًا، الانسجام بينها وبين زوجتي. فراحت تتكرر الزيارات بيننا كعائلتين جمعتهما الغربة عن الوطن الواحد. وكان فريدٌ هذا دائم التحدّثِ عن الفضيلة والأخلاق والقيم الدينية والسلوك القويم. كما كان، كلّما ازددنا تعارفًا، يزيدني ثناءً على حسن أخلاقي وحكمتي وخبرتي. ثم راح يُسمعني برغبته في مشاركتي في عملٍ تجاريٍّ أختارُه بنفسي بما لي من المعرفة

في الأعمال والأشخاص. فكنت أتعمّد التمهّل في اتخاذ القرار، فأجيب إمّا بالصمت أو بقولي: إن شاء الله.

وفي أحد الأيام علم كلٌّ منّا أن إحدى لعب «ورق الشّدَّة» هواية مشتركة، فكانت لنا جَمعةٌ مع رجلين آخرين من معارفه، حول طاولة تلك اللعبة. وبعدما توافقنا على قواعدها وشروطها كالعادة، ومنها: ما يسمح للاعب أن يفرض إعادة خلط الأوراق وتوزيعها ثانية. ويشاء القدر أن يكون في حصتي من أول توزيع، ما يسمح لي بذلك، فأعلمت الجميع به ووضعت الأوراق على الطاولة. وإذا بفريدٍ وحده يمدُّ يدَه إلى تلك الأوراق ويقلّبها واحدة تلو الأخرى، للتحقّق من صدق كلامي. وعلى الرُّغم من أنّ في ذلك حقًّا له ولسائر اللاعبين، فقد قلت في سرّي، هذا دليلٌ على أنّه رجلٌ شكّاك، فإن لم يثق بصدق كلامي في «لعبة ورق»، ولم نكن طفلين لا يعرفان معنى الثقة، فهل سيثق بي إن شاركته في العمل والمال؟ فاتخذت قراري، عندئذٍ، بألّا يكون بيني وبينه أيُّ نوعٍ من الشراكة، لأنّ الثقة الكاملة هي أول وأهمّ أسسها، كما أسلفتُ. ولم يطل بي الزمن كي أكتشف صدق حدسي هذا.

أمّا **الحكاية الثانية**:

فقد رواها لي يومًا، صديقي سمير، وكان مديرًا في أحد المصارف، وهي مماثلة في مضمونها لحكايتي الأولى، أكّد لي أنّه قد عايش أحداثها، كما لو أنّها جرت أمام عينيه، قال: إبّان عملي في المصرف، توثقت علاقتي بأحد عملائه المتمولين، ويدعى يوسف، وكان من الذين عركتهم الأيام وعلمتهم التجارب ما لم نتعلمه في المدارس والجامعات، وقد كان يناهز الستين من سنوات العمر. وبعد مدّة من الزمن، رحتُ أرى برفقته شابّا، اسمه وليد، في أوائل العقد الرابع.

وقد علمت منه بأن وليدًا هذا، شابٌ نشيطٌ ودقيقٌ في عمله ويطمح إلى بلوغ ما هو أحسن.

وبعد ما يزيد عن الأسبوعين، جاءني يوسف بمفرده، فسألته عن وليد، فقال: لقد ذهب في حال سبيله، وفّقه الله.

قلت: هل في الأمر ما يمنعك من أن توضح السبب؟

قال: السبب هو أنّه كان قد عرض عليّ المشاركة، هو بالعمل وأنا بالمال، في مشروع رأيته مجديًا، ولكنّني أبلغته، منذ بضعة أيامٍ، عدم رغبتي في السير قدمًا في تلك الشراكة.

قلت: وهل اكتشفت في ذلك المشروع ما جعلك تراه فاشلًا أو غير مجدٍ؟

قال: لا يا صديقي، بل هو جيّدٌ وربحه مضمون.

قلت: ولماذا تخلّيت عنه إذًا؟

قال: لأنّني بدّلت رأيي في مشاركة وليدٍ نفسِه.

قلت: وهل صدر عنه أيّ إساءة إليك؟ أم هل اكتشفت فيه أمرًا ما، جعلك تعزف عن متابعة السير في مشاركته؟ وممّا خبرته فيك من الحكمة والفراسة، يجعلني أتوقع شيئًا من هذا.

قال: اسمع يا صديقي، لم أكن أرغب في الإفصاح عن السبب الذي دعاني إلى ذلك. إنّني أعرف جيدًا أنّ رغبتك في معرفته، تفرضها متطلبات العمل المصرفي. كما أنّ السريّة في عملك هذا، تجعلني متأكدًا من أنّ ما تسمعه عن الآخرين تحفظه سرًّا في صدرك.

ثم تابع: لا يا صديقي لم يصدر عنه أيّ إساءة أو تصرّفٍ مسيء، ولو، بشكل غير مباشر، سواء تُجاهي أم تجاه غيري، فهو شابٌّ مهذبٌ. وجلّ ما في الأمر أنّه تصرّفٌ بسيط أثار في نفسي بعض الشكّ، وقد أكون مخطئًا، ولكن متى خالج الشكّ النفس، فقد يؤدي ذلك إلى زعزعة الثقة.

والثقة الكاملة بين الشركاء أساس ودعامة استمرار الشراكة ونجاح العمل.

قلت: وكيف حصل ذلك؟

قال: في ذلك اليوم، وضعنا، أنا ووليد، اللمسات النهائيّة لأسس مشاركتنا في تنفيذ ذلك المشروع، على أن نبلّغها، في اليوم التالي، إلى المحامي لصياغة العقد. فقلت له ما دمنا قد أنهينا اتفاقنا ولم يزل لديك بعض الوقت، قبل ساعة عودتك إلى بيتك، فلِمَ لا نلعب جولة بطاولة «النرد»؟

ولما انتهينا من اللعب، أغلقت الطاولة، وقلت له: أهنّئك، فقد ربحت جولة اللعب هذه. ولكن، أرجو أن تنسى ما سبق واتفقنا عليه في ما يخصُّ فكرة الشراكة بيننا.

فقال وليد، وعلامات التعجّبِ والأسى باديةٌ على قسمات وجهه: ولماذا يا صديقي؟ فهل بدر منّي أيُّ إساءة؟ أم أنّك غضبت لأنّني ربحت جولة اللعب؟

فقلت له: لا يا عزيزي، لا علاقة لربحك هذا ولا للخسارة في قراري. ولكنّ إحساسي بأنّك استغللت ضعف نظري، أدخل في نفسي بعض الشكّ تُجاهك. فقد كنتَ في كثيرٍ من الأحيان تقرأ الأرقام على غير ما كانت تستقرّ عليها الكِعاب[1]. فخالجني شعور بأنّ من لا يؤتمن على المناقب في اللعب، قد لا يؤتمن على المال في الشراكة. وعندما يدخل الشكُّ في النفس تنعدم الثقة. ولم يبقَ لي سوى أن أتمنى لك التوفيق.

وختم صديقي سميرٌ روايته، قائلًا: ومنذ ساعة انتهاء يوسفَ من كلامه هذا، رحت أدقّق في أصغر وأدقِّ حركات وكلمات عملاء المصرف، كي أسبر غور أنفسهم. وهذا ما

[1] الكِعاب، فصوص النرد. والعامة تقول: «الزهر».

ساعدني كثيرًا في المحافظة على سلامة محفظة القروض المالية في فرع المصرف الذي كنت أديره.

فقال حامد: شكرًا لك يا صديقي العزيز سامي. فما سمَّيتَهُ أنتَ حكاية، اعتبرُهُ أنا نصيحة من رجلٍ حكيمٍ، سوف تكون دستوري في التعامل مع الآخرين.

إلينا والحب الحرام

كان توماس يجلس مع رفاقٍ له، في مقهى الجامعة في تورونتو كبرى المدن الكندية، عندما وقع نظره على فتاة حسناء تجلس، مع رفيقات لها، إلى طاولة أخرى في الجهة المقابلة. فقام عن كرسيه متجهًا نحوهن. في الوقت عينه، لاحت من الفتاة نظرة رأت فيها توماس يخطو أولى خطاه، فقامت بدورها واتجهت نحو باب المقهى.

ظنّ توماس أنّها تريد الهرب منه. فقرر اللحاق بها مهما كلفه الأمر. ولكنه فوجئ بأنها، لمّا اقتربت من الباب، توقفت وعيناها شاخصتان نحوه. فاقترب منها، وحيّاها فردّت التحية بأحسن منها. فأيقن بأن هناك أمرًا غريبًا يربط بينهما، أهو الحبُّ من أول نظرة؟ كما يقول الشعراء؟ ولكنه طرح تساؤله جانبًا، وأكمل مغامرته.

فقال: أنا توماس، طالب في هذه الجامعة منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات، وهذه هي المرة الأولى التي أراكِ فيها.

فأجابت: وأنا إلينا، ولستَ مخطئًا، فاليوم هو ثالث أيامي في هذه الجامعة.

قال: وفي أيّ من الفروع تدرسين؟

قالت: علم الاجتماع. وماذا عنك أنت؟

قال: في آخر الفصل الثاني من هذه السنة، أكون قد تخرجت بشهادة البكالوريوس في العلوم السياسية. وإنّي على استعدادٍ لمساعدتك في أيّ أمرٍ تحتاجينه، فعلم الاجتماع كان من بين الدروس التي اخترتها.

قالت: ولكن، هل لك أن تفسّر لي سبب هجمتك هذه نحوي؟

قال: لا أعلم. ولكن لماذا تركتِ أنت رفيقاتك وكأنك تريدين الذهاب، ثم توقفتِ تنتظرين قدومي إليكِ؟

قالت: صدّقني، لست أدري. وكأن عائقًا ما منعني من الخروج، وجعلني أنتظرك.

قال: فنحن إذًا متساويان. فهل يجوز لي بالتالي أن أطلب منكِ رقم هاتفكِ، كي نتواعد على لقاء غدًا أو بعده؟

قالت: بكل سرور.

وبعدما تبادلا أرقام الهاتف، عاد توماس إلى رفاقه. ولكنّه لم يتمكن من مشاركتهم الحديث، فاعتذر وغادرهم، شارد الذهن، لا يفكر سوى بإلينا وبما قابلته هي به. وعاد يكرّر في سرّه: أهو حقًا ما يدعونه، الحبُّ من أول نظرة؟ ولذا قرّر الذهاب إلى مقر إقامته، متجاهلا ما تبقى من المحاضرات المقرّرة لذلك اليوم. فاستقلّ الحافلة التي تنقله إلى تلك الغرفة التي استأجرها منذ انتسابه إلى الجامعة. وفي الطريق لم ينقطع سيل الأسئلة التي لم يلقَ جوابًا لأيٍّ منها، عن السبب الذي دعاه لاقتحام استقلالية إلينا، ولا سبب عدم صدّها هي له. واستمر على هذه الحال ردحًا طويلا من الليل، والأرق يحرمه النوم.

أمّا إلينا، فلم تعد إلى رفيقاتها، وغادرت حرم الجامعة إلى منزلها، والأفكار تتشابك في رأسها، غير قادرة على فهم ما حدث لها مع توماس. وما هذا الذي جذبها نحوه، وهي المرة الأولى التي تراه فيها؟ ولماذا جاءها هو؟ وماذا يريد منها؟ ولماذا قبلت دعوته إلى لقاء لاحق، ومن دون أن تعلم غايته من ذلك؟ ولماذا سرّتها دعوته؟ ولمَ أعطته رقم هاتفها، من دون أن تتلكأ ولو لثانية واحدة؟ أهي سهام

«كيوبيد»، إله الحب، كما يقولون؟ أسئلة عديدة شغلت عقلها وحرمتها من بضع ساعات ليلة ذلك اليوم. كما أنها سهت عن عادة درجت عليها منذ طفولتها، في أن تنتظر عودة والدها من عمله. فهما يعيشان معًا وحيدين، إذ قد نذر هو حياته لابنته الوحيدة، منذ وفاة والدتها بحادث سير، بعد ولادتها بأسابيع قليلة.

في اليوم التالي، فوجئت إلينا بتوماس قاعدًا على أولى درجات السلم الذي يؤدي إلى القاعة حيث تُلقى محاضرات السنة الأولى في علم الاجتماع.

فقالت: ماذا دهاك؟ ولمَ أنت هنا؟ ألم يكفكَ ما فعلته بالأمس؟ ثم ألم يكن بإمكانك محادثتي هاتفيًّا؟

قال: مهلا، بالله عليك، يكفيني ما عانيت منه من أرقٍ حرم عينيَّ النوم معظم الليل.

قالت: وما علاقتي أنا بذلك؟

قال: أصدقيني القول، هل غمض لك جفنٌ طوال الليل؟

قالت، وهي تجهد في أن تتمالك نفسها: يبدو أنك واثق جدًّا بنفسك. وتوقفت عن الكلام قليلا، حتى شعرت بما دفعها إلى القول: صحيح، لقد عانيت من أرقٍ لم أعرفه من قبل.

قال: إذًا، ماذا ترين في أن نمضي معًا بعض ساعات هذا النهار في إحدى حدائق المدينة؟ وسأنتظرك هنا بعد ساعتين من الآن.

قالت: لماذا ساعتان؟

قال: هما الوقت الكافي للمحاضرتين المقررتين ليومكِ هذا.

فابتسمت ولم تعلقْ، وصعدت درجات السلم جريًا.

وما أن انتهت المحاضرة الثانية، حتى جمعت أوراقها، وخرجت مسرعة من القاعة. ولمّا وضعت قدمها على أولى

درجات السلم، رأت توماس واقفًا في أسفله، وعيناه تنظران إليها.

فتبادلا التحية وانطلقا بخطًى حثيثة، وجهتهما حديقة، قريبة من موقع الجامعة، فسيحة الأطراف، يغطي أرضها بساطٌ من العشب الأخضر، وتظلل أشجارٌ وارفةٌ، غير مثمرة، عدة أماكن منها، حيث ثُبّتت مقاعدُ خشبية مطلية باللون الأخضر، يفصل فيما بينها بضعة أمتار، كافية ليشعر روادها بحرية الحديث، وتقيهم من تلصّص الفضوليين، وكأن البلدية تعمّدت ذلك، ليتمتع العشّاق بلحظات من السعادة التي تضفيها عليهم أحاديث الحب.

قصد الاثنان مقعدًا منفردًا في إحدى زوايا الحديقة، فتعمدت إلينا أن يجلس كلٌّ على طرف من طرفي المقعد. ثم قالت: بالله عليك، أخبرني وبكل صراحة ووضوح، ماذا تريدُ منّي؟

قال توماس: صدقيني لا أقصد مما أقدمت عليه، أيّ أمرٍ سيئ أو نية مبيّتة، وكل ما أسعى إليه هو تفسير ما دعاني أنا إلى ذلك، وتلك العفوية التي جعلتكِ أنت أيضًا تقابليني بالمثل من دون تردد.

قالت: أقسم لك بأن ليس لديّ أي تفسير لردّة فعلي. وهذا ما سبّب لي ذلك الأرق الذي حرمني النوم لساعات طوال الليل الفائت.

قال: أهو الحبُّ من أولِ نظرة؟ فحين رأيتك بالأمس انتابني شعورٌ بأنّ هناك شيئًا ما يدفعني بقوة تُجاهك.

فلمّا سمعت كلامه عن الحب، احمرّ وجهها، وشعرت بأنّ لسانها لم يعد قادرًا على النطق، فنحت بوجهها عنه، ولم تجب.

فتابع توماس قائلا: أرجو ألا أكون قد تفوهت بما أزعجك.

فقالت: لا، لم تزعجني.

قال: ولماذا امتنعتِ عن الجواب إذًا؟

قالت: لم أمتنع، بل لم أجد تفسيرًا لهذا اللغز. لأن... إذ... لا لا أعرف.

قال: بل تلعثمك هذا دليلٌ واضحٌ على أنّ وراء الأكمة ما وراءها. بالله عليك لا تخافي مني، أقسم لكِ بأنّني صادق في كل ما قلت. واعتبريني صديقًا وأفصحي.

قالت: لا، لست خائفة منك، وإلا لما رأيتني الآن أحادثك. بل... أجل لقد شعرت، منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها متجهًا نحوي، بأنّ هناك تيّارًا دفعني بقوة إلى انتظارك قرب باب المقهى.

قال: أتمانعين في أن نكون صديقين صادقين نعمل معًا على فكّ عُقَدِ هذا اللغز؟

قالت: لا، لا مانع لدي، بل يكون هذا من دواعي سروري. ولا أخفي عنك أن سبب قبولي طلبك هذا هو أنّي قد لمست، بل تحققت من أنّك صادقٌ في كلّ ما قلت، لأنك لم تسمعني أيّ كلامٍ معسول عن الحسن والجمال، الذي كثيرًا ما تسمعه الفتاة من أولى الكلمات التي يتودّد بها الشاب ذو النية غير السليمة.

قال: شكرًا لك، يا أصدق الأصدقاء، لا الصديقات. وسأكون بجانبك في السراء والضراء، حتى بعد التخرج، بل ما حييت.

وراحت تتوالى لقاءاتهم اليومية. وفي أحد الأيام، بينما كانا على مقعدهما في الحديقة، رنَّ جرس هاتف إلينا،

فأجابت بلغة لم يفهم منها توماس كلمة واحدة. ولما انتهت، سألها قائلا: ما هي هذه اللغة التي كنت تتكلمين بها؟

قالت: هي اليونانية، لغة والدي الأم، وقد تعاهدنا منذ طفولتي أن تكون وسيلة التواصل الوحيدة فيما بيننا، وقد أراد إبلاغي بأنه سيتأخر لما يزيد عن الساعة، عن موعد عودته هذا المساء.

قال، متعجبًا: أما زلتِ تسكنين معه؟!

قالت: وأين الغرابة في هذا؟ فوالدي يوناني قروي، ومن عاداتنا وتقاليدنا ألا يترك الأولاد منزل الأبوين إلا إلى منزل الزوجية. وهذا أيضًا ما عاهدته عليه، وبخاصّة أننا نعيش معًا وحيدين منذ وفاة والدتي بحادث سير، بعدما ولدتني ببضعة أسابيع.

قال: وقد فهمت الآن، لماذا سمّاكِ بهذا الاسم الرقيق: إلينا، وبمعناه، «أجمل نساء العالم». ولكن لمَ لمْ يتزوج بعد وفاة والدتك؟

قالت: لقد نذر حياته لتنشئتي وسعادتي، وهذه أيضًا من الواجبات على الأبوين، أو من بقي حيّا منهما، الموروثة عن آبائه وأجداده. ولا مانع، لهذا الأخير، من أن يتزوج بعد وفاة الآخر، ولكن كثيرًا ما يمتنع بإرادته هو، خوفًا من التأثير السلبي على نفس ولده، من معاملة تلك الزوجة أو الزوج.

قال: وماذا عن حياته الخاصة، ومتطلباته الجسدية؟

قالت: لقد غُرس، منذ القدم، في صدور الآباء والأجداد، أنّ العائلة هي أساس وعماد الوطن، فإن تفككت تفكك الوطن. وما زال الكثيرون من أبناء القرى، لا في اليونان فقط، بل في معظم بلاد الشرق، التي لم تزل تتمسك بتعاليم الديانات السماوية، يؤمنون بذلك.

قال: وماذا عنكِ أنتِ؟

قالت: هذا ما نشأت عليه طفلة، واقتنعت بصوابيته يافعة. وسأعمل على غرسه في نفوس أولادي، بكل إمكانياتي. وسأنشئهم على جوهر تعاليم تلك الديانات.

قال: هل لي أن أطرح عليكِ بعض الأسئلة الشخصية؟

قالت: أرجوك اسأل عما شئت، وسأجيبك بكل صراحة، فليس لدي ما أخجل منه.

قال: هل أنتِ من الملتزمين بتعاليم الأديان؟

قالت: أجل، أنا مسيحيّة مقتنعة كل الاقتناع بتعاليم الديانة المسيحية، كما أبلغنا إياها يسوع المسيح عن إله السماوات والأرض، سواء في علاقتنا معه، أم مع سائر البشر. كما أنّي مقتنعة أيضًا بأن، مهما بلغ الفكر الإنساني من الذكاء والتقدم العلمي، فلن يرقى أبدًا إلى مستوى من خلق هذه الأكوان بهذه الدقة العظيمة التي لم يتوصل العلماء بعد، سوى إلى فهم البسيط من قواعدها. ولكن، أرجوك أن تفرّق بين ما تقوله تعاليم الدين، وما يقوله أو يفعله رجال الدين.

قال: وماذا ترَين في تعاليم الديانات الأخرى؟

قالت: إن كنت تقصد الديانات السماوية، فما دام مصدرها واحدًا، فجوهرها سيكون واحدًا ومن دون أدنى شك. وإذا كان من يسمّون «رجال دين»، قد فرّقوا بين أتباعها، فهذا لا يعني أن تعاليمها متناقضة أو متخالفة.

قال: وأين حريتك الشخصية؟

قالت: وهل تظنُّ أن هناك حريةً مطلقة، ومن دون حدود؟

قال: إنما قصدت، حرية الإنسان في حياته الخاصة بكل معنى الكلمة.

قالت: تريد أن تقول، حرية الإنسان في التصرف بجسده، أليس كذلك؟

قال: أجل.

قالت: لا بدّ من أن تثبت لك الأيام، أن استغلال هذه المقولة بهذا المفهوم العصري، سيدمر الأوطان، لأنه، وكما أسلفتُ، العامل الأساسي في تدمير العائلة.

قال: أفهم من كلامك، أنكِ، وعلى الرغم مما يظهر من الانفتاح في سلوكك، أنّ ممارسة الجنس قبل الزواج، أمرٌ مرفوض في مفهومك.

قالت: كل الرفض، وأضفْ إليها أيضًا: حرية المساكنة والإسقاط والمثلية. بل كلّ ما أباحته، ما سمّي زورًا بالقوانين العصرية، ويخالف تعاليم الأديان السماوية.

قال: على الرغم من عدم اقتناعي، فلا يمكنني سوى أن أحترم رأيكِ.

قالت: أجبني بكل صراحة، أنت رجل مقتبل الشباب، إن عاشت معك فتاة، في منزل واحد، وأعطتك كلّ ما يطلبه الشاب من الفتاة، فهل تفكر في الزواج بها أو بغيرها؟ لتتحمل أعباء بيت الزوجية وتربية الأولاد وتعليمهم...؟

قال: بالتأكيد لن أفعل.

قالت: لهذا قلتُ بأن المساكنة أولُ مسمارٍ دقَّ في نعش العائلة.

قال: أتقبلين الزواج بي؟

فوقع عليها طلبه المفاجئ هذا، كالصاعقة. فانتابتها قشعريرة، تحولت إلى رجفان عمّ معظم مفاصلها، وراحت تنظر إليه بطرف عينها لترى مدى صدقه، ولسانُها يعجز عن الكلام.

فتابع، قائلا: بكل صدقٍ أقول لك، بأنّ حبكِ قد ملأ فؤادي منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها في مقهى الجامعة. فلكِ أن تقبلي أو ترفضي، ولكن لا تجيبي الآن، واتركِي لنفسكِ الوقت الكافي لاتخاذ القرار الذي يمليه عليكِ عقلُكِ وقلبكِ.

وثِقي بأنني، وإن كان سلبيّا، فسأبقى لكِ صديقًا مخلصًا مدى الدهر.

فوقفت، متثاقلة مشوشة الأفكار، وانطلقت مسرعة ومن دون أن تودّعه. فقام بدوره محاولا اللحاق بها، وهو يردد عبارات الاعتذار، إلى أن تمكن من الامساك بيدها، فجذبها إليه ليضمها بين ذراعيه، فإذا بها ترتمي على صدره والدموع تجري من مقلتيها. وبعد بضع دقائق، هدأت ورفعت رأسها عن صدره ومسحت عينيها، وقالت: وهل كنت تظنّ بأنني لا أبادلك الشعور نفسه؟ فشرارة حبّي لك أطلقها اقتحامك المفاجئ لحياتي في تلك اللحظة. ولكن، كي أكون صادقة مع نفسي ومع والدي، وعلى الرغم من أنّني متأكدة من عدم ممانعته، فعلينا أن نطلب موافقة ورضى أبوينا، اولا.

قال: إن كانت هذه رغبتك، فأنا على كامل الاستعداد لتنفيذها.

قالت: ولي طلبٌ آخر، وهو الأهم في رأيي.

قال: وما هو؟

قالت: أن نتعاهد على أن يكون كلٌّ منا مخلصًا للآخر وصادقًا معه إلى أقصى الحدود.

قال: أعاهدك على ذلك، عهدًا لا رجوع عنه، حتى آخر رمقٍ في حياتي.

وبعد بضعة أسابيع، وكان توماس، فور تخرّجه، قد حصل على فرصة عملٍ في تخصصه، في إحدى وزارات الدولة الكندية، فاكترى شقة صغيرة، بالقرب من مسكن والد إلينا، حسب رغبتها، وتزوجا وانتقلا للسكن فيها، حيث أمضيا نحوًا من ثلاث سنوات، كأسعد زوجين، أنهت فيهن، إلينا دراستها الجامعية، وتسنّى لها العمل أيضًا في

تخصصها. كل ذلك من دون أن تنقطع يومًا عن الاهتمام بشؤون والدها.

بعد ذلك ببضعة شهور، بدأت تظهر عليها بشائر الحمْل، ما أسعد قلبها وقلب زوجها ووالدها. ومرّت الأيام بشكلٍ طبيعي، إلى أن ظهر ما لم يكن بالحسبان. فقد أبلغها طبيبها، في زيارتها المعتادة، في شهرها الرابع، بأنّه يخاف من أن يكون في الجنين، إن ولد، تشوهٌ خَلْقي. وفور سماعها كلامه هذا، طلبت منه تحديد موعد لها ولزوجها، في اليوم التالي، للتباحث في هذا الأمر.

وبخلاصة التداول، اقترح الطبيب الإسراع في إجراء بعض الفحوص الطبية والمخبرية، للأم والجنين، لاتخاذ القرار المناسب لسلامة الأم، والجنين إذا كان ممكنا، وإلا إجراء عملية إسقاطه في سبيل حياة الأم. كذلك اقترح الطبيب إجراء فحص الحمض النووي للأم والأب، لمعرفة ما إذا كان في جينات أيّ منهما ما قد يكون سببا فيما حصل أو قد يحصل فيما بعد.

ولمّا عاد توماس وإلينا إلى عيادة الطبيب بعد تسلّمه نتائج الفحوص، لاحظا التجهم على وجهه، وقال يجب إجراء عملية الإسقاط فورًا، ومن دون أي تأخير. ثم طلب سيارة الإسعاف لنقل إلينا بأقصى سرعة إلى المستشفى، وأعلم توماس بأنه سيسبق الجميع لإجراء التحضيرات اللازمة للعملية. فقام توماس بإعلام ديمتري، والد إلينا بالأمر، فوافاه فورا إلى المستشفى.

وبعدما تمّت العمليّة بنجاح، طلب الطبيب من توماس، أن يأتيه إلى العيادة في اليوم التالي، لأمر مهمّ جدًّا. وفي الساعة المحددة وصل توماس إلى عيادة الطبيب. فبادره هذا الأخير قائلا: هناك أمرٌ يواجهني لأول مرّة في حياتي المهنية.

فتقرير المختبر يقول بأنّ في جينات كلاكما، إلينا وأنت، تطابقٌ بنسبة عالية جدّا، لا يكون إلا بين الأخوين.

فقال توماس، بصوت مضطرب: هناك خطأ ما بالتأكيد، فوالد إلينا أتى إلى كندا من اليونان للدراسة الجامعية، ومنذ تخرجه استقر في هذه المدينة. وأنا ولدت في إحدى مقاطعات الغرب الكندي، حيث لم يزل والداي يعيشان هناك، وقد جئتُ منذ نحو ثمان أو تسع سنوات، إلى مدينتنا هذه للدراسة أيضًا. وبعد تخرجي بقليل تزوجنا أنا وإلينا، وكان هذا حملها الأول بسبب الدراسة أيضًا.

قال الطبيب: اهدأ يا عزيزي، ولا لزوم للانفعال والاضطراب. فمعالجة القضايا تتمُّ بالهدوء والتأني. ولكن، أين والدة إلينا؟

قال توماس: لقد توفيت بعد ولادة إلينا ببضعة أسابيع، بحادث سير.

قال الطبيب: إذًا، أعيدا الاختبار في مختبر آخر، لنتحقق من وجود خطأٍ في التقرير، أم لا.

كتم توماس الخبر عن إلينا ريثما تستعيد قُواها الجسدية والنفسية، بالاتفاق مع ديمتري، الذي فوجئ أيضًا بالخبر.

وبعدما تعافت إلينا، صارحها توماس وديمتري بنتيجة ذلك الفحص، فأصرّت على إعادته في عدة مختبرات، فهذا أمرٌ في غاية الخطورة.

ولكنّ نتيجة إعادة الاختبار في ثلاث مختبرات، قد جاءت مطابقة تمامًا للاختبار الأول. فكاد الجنون أن يعصف بالثلاثة، إلا أن ديمتري، الذي عركته الأيام، قال لتوماس: علينا يا بني أن نبحث الأمر مع والديك، فأرجو أن تطلب منهما، إمّا أن يأتيانا على جناح السرعة، أو أن نذهب نحن فورًا إليهما.

وما هي إلا ساعات، حتى كان توماس يقلُّ أبويه من المطار إلى منزل ديمتري. وما أن أخذ كلٌّ مقعده، حتى تولّى توماس شرح الموضوع أمام الجميع بأدق تفاصيله. فإذا بوالده ينظر إلى زوجته بصمتٍ، ويهزُّ رأسه، فتبادله هي بدورها الحركة عينها، ومن دون أن تنطق ببنت شفة.

فقال الأب: اسمع يا بني، يبدو أنّ الوقت قد فرض عليّ أن أفصح عن سرٍّ كنت أنوي عدم البوح به مدى العمر. إنّ زوجتي ماري، هذه السيدة المحترمة التي عاشت معي على المرة قبل الحلوة، والتي لا أستطيع إيفاءها حقهّا ومعروفها، مهما قلتُ أو فعلت، هي ليست أمُّك الطبيعية.

فصمت الجميع من هول المفاجأة. إلى أن صاح توماس قائلا: لا لا أصدق ما تقول يا أبي، هذه أمي التي كانت تشعر بآلامي قبل أن أتألم، وبسعادتي قبل أن أبتسم. بالله عليك لا تزدني حزنًا وحيرةً على ما أنا فيه.

فقالت ماري: يا بني، أنا أمك التي ربتك، وسأبقى أمّك ما حييت، ولكن ما قاله زوجي الحبيب جون، هو الحقيقة بعينها، وسيخبرك هو بنفسه عن أمّك التي ولدتك.

فقال جون: سأفصح لكم جميعًا عن تفاصيل من حياتي، لا يعرفها سوى زوجتي الحبيبة ماري. كنت شابًا، في أول العشرينيات من العمر يوم تعرفت على والدتك تلك، إذ كنّا نعمل معًا في شركة واحدة. وكانت تصغرني بسنتين، حسناء جذابة تحبُّ الحياة، وأظنّ أنكم تعرفون ماذا يعني ذلك لشابٍ في مثل تلك الحال. وتطورت علاقتنا، إلى أن عشنا معًا في مسكنٍ واحدٍ لبضعة شهور، غادرتني بعدها بحجة حصولها على فرصة عمل بشروط أفضل من عملها في الشركة. وبعد ذلك بفترة وجيزة جمعتني الأقدار بماري، التي وقعتُ بحبها سريعًا، وبادلتني بدورها الشعور نفسه، ثم اتفقنا على

الزواج، بعدما صارح كلٌّ منا الآخر عن ماضيه. ولكن لم يمضِ سوى أسابيع قليلة على زواجنا، حين جاءتني والدتك تحملك على يدها، ثم تضعك بين يدي، قائلة: هذا ابنك خذْه، فأنا لا أستطيع تحمُّل نفقات معيشته. فقلت لها: وماذا يؤكد لي أنّه ابني أنا؟ قالت: فلنذهب فورًا لإجراء اختبار الحمض النووي. وقد جرى كل ذلك أمام عيني ماري. ولما جاءت النتيجة إيجابية، أخذتك ماري وضمتك إلى صدرها، وقالت: سيكون هذا أول أبنائنا، ولن أفرّقه عمن سأحمله في أحشائي. وهكذا أصبحت ماري والدتك بكل معنى الكلمة. وأظنُّ أنك لم تشعر يومًا بأنها فرّقت في معاملتك عن أخيك وليم.

فقال توماس: أشهدكم جميعًا بأنني لم أشعر ولو لثانية واحدة أنها ليست أمّي.

فتدخل ديمتري قائلا: يا سيد جون لم تذكر لنا اسم تلك المرأة، أو إلى أين ذهبت بعدما سلمتك توماس؟ أو أيّ إشارة قد توصلنا إليها؟

قال جون: لم تخبرني إلى أين ستذهب، أظنّ أنّه خوفًا من أعيد لها ابنها. أما اسمها فكان مارلين جيمس.

فصرخ ديمتري: يا للهول. فغادر الغرفة مسرعًا، ثم عاد يحمل بيده صورة ويضعها أمام عيني جون، ويساله: أهذه هي؟

فأطال جون النظر في الصورة، ثم صفع جبينه بكفه الأيمن، وصاح: يا إلهي هذه هي أجل هي. أرجوك لا تقل إنها والدة إلينا.

فقال ديمتري: بل أقول، يا للأسف، بلى، يا صديقي هي كذلك. وهنا تكمن المصيبة. لقد تزوجت إلينا أخاها. فيا إلهي، يا مدبّر الكون أعنّا، واغفر لنا، وسامحنا، وارحمنا.

ثم نظر إلى ابنته، فإذا بوجهها يمتقع اصفرارًا، ويداها ترتجفان، والدموع تجري على وجنتيها، ثم لم تعد تتمالك قواها وتغيب عن الوعي، فيُهرع إليها فيطرحها على الأرض ويرفع رجليها من القدمين. ويهبُّ توماس ويحضر وسادة يضعها تحت قدميها، ثم كوبًا من الماء فينثر منه بيده على وجهها، وتقوم ماري بتدليك كفيها وقدميها، إلى أن صحت وعادت إلى رشدها. فنظرت إلى توماس وقالت: يبدو أننا فسرنا ذلك اللغز خطأً. فيجيبها هو والحزن يملأ جوارحه: أجل يا للأسف، يا... يا... لا أدري ماذا أقول؟؟!! فانتفض واقفًا وخرج إلى الشرفة، فلحق به والده، وراح يخفف عنه.

وبعد قليل عاد كلٌّ إلى مقعده، في ظلِّ صمتٍ مطبق، إلى أن كسر ديمتري حاجزه بالقول: هناك أمرٌ مهمٌ علينا أن نقوم به مع بزوغ شمس الغد، وهو الطلب من المحكمة إبطال عقد الزواج. وسأكلف محاميًا، صديقًا لي للقيام بهذه المهمة، على وجه السرعة، وعليكما يا سيد جون وسيدة ماري، تأخير عودتكما حتى انتهاء الإجراءات القانونية، لأن وجودكما أساسيٌّ ومهمٌّ جدًا.

وبعد يومين، حضر الجميع، برفقة المحامي، إلى قاعة المحكمة. وبعدما فتح القاضي الجلسة، قال: إلينا وتوماس، لماذا تطلبان إلغاء عقد زواجكما؟

قال توماس: للأسف سيدي القاضي، فبعد مرور ما يزيد عن أربع سنوات، تبيّن لنا، وبالبرهان القاطع، إنّنا وُلدنا من أمٍّ واحدة.

فصرخ القاضي قائلا: ماذا تقول؟ هذه جريمة بكل معنى الكلمة، وأين هي هذه المرأة التي ولدتكما؟ يجب أن تحاكم وتعاقب.

وبعدما تولّى المحامي تبيان جميع جوانب القضية، وسماع القاضي أقوال الجميع، والاطلاع على تقارير المختبرات، والتحقق من عدم وجود أولاد، أو حصول حمل جديد، أقرّ ببطلان عقد الزواج، وكأنه لم يكن. على أن يصدر الحكم النهائي في اليوم التالي.

وقبل أن يرفع الجلسة، طلبت إلينا الكلام، وبعدما أشار لها القاضي بالموافقة، قالت: سيدي القاضي، إذا كانت مارلين قد ارتكبت جريمة، وهذا صحيح، فهناك من يجب أن يتحمل المسؤولية الأولى، والعقاب الأعظم، قبلها.

فقال القاضي: أفصحي وأوضحي وسمّي الأشياء بأسمائها.

قالت: هم كثرٌ، أولهم، الحكومة ومجلس النواب، اللذان أقرّا وصدّقا، هذه القوانين والأنظمة التي أباحت المساكنة، انطلاقًا من مقولة، أنّ الإنسان حرُّ التصرف بجسده. وثانيًا، الحكومات والمجالس المتعاقبة التي لم تلغِها، وثالثًا، الجسم القضائي بأكمله، لأنّ لا أحد منهم أجمعين، قد أدرك خطورة تلك الأنظمة على المجتمع، أو بحث في تأثيرها عليه.

سيدي القاضي، لقد توهّم أولئك المشرّعون والمفكرون، أنهم أعلمُ من الذي خلق السماوات والأرض، واعتبروا الخطأ في تشريعاتِه، لا في عدم فهمهم السليم لها ولسبب أو أسباب ما سنّه للبشر. وكمسيحية، أقول، بأنهم فهموها من أفعال أو أقوال رجالٍ نصّبوا أنفسهم ناطقين باسم إله البشر أجمعين، عنيت الكثير من رجال الدين المسيحي. أو أنّ هناكَ إياديًا خفيّةً مجهولةً، تعمل على تدمير المجتمعات، بدءًا بالمسيحية منها.

سيدي القاضي، يُعيبون على الأديان في أنّها هي التي أوجدت ما يسمّى بالنظام الذكوري، وأنّ على الحكومات

العمل على إعطاء المرأة حقوقها، ومساواتها بالرجل. عن أي حقوقٍ يتكلمون؟ هل تكون في ممارستها الجنس من دون أيّ قيد أو نظام؟ وها أنا وتوماس ضحيتان من ضحايا هذا الحق. ولا بد من التذكير بأن، قد يكون لنا إخوة آخرين من تلك المرأة التي ولدتنا، سواء قبل فعلتها مع العم جون، أو ما قد تكون أقدمت عليه قبل ارتباطها بوالدي. وألا يجوز أن يحدث، ما يشبه ما حدث لنا، لآخرين غيرنا؟ ثم كيف ستكون تلك المساواة؟ هل سيفرضون على الرجل أن يحمل جنينًا في أحشائه، ليلده بعد تسعة أشهر؟ لقد خلق الله الرجل والمرأة وأعطى لكلٍ جسدًا يتناسب مع الدور الذي سيقوم به لاستمرارية الوجود الإنسانيّ على هذه البسيطة.

سيدي القاضي، هل فكّر أحد منهم، من سيكون المستفيد الأول من إباحة المساكنة؟ إنّه الرجل، سيدي القاضي، لا المرأة. فغريزة الأمومة عند المرأة، لا يشعر بها الرجل، وأول اهتماماته هو إشباع رغبته الجنسية. فقد رفعت بدعة المساكنة هذه، عن كاهله أعباء وتكاليف بيت الزوجية وتربية وتعليم الأولاد، ووهبته لذة التمتع بغريزته تلك، مقابل إقامة المرأة في مسكنه. وإن حصل حمل غير مقصود، فقوانين الإسقاط كفيلة بالتخلص من ذلك العبء. ولو سألت رجلا مسنًّا، لقال لك ومن دون خجل: «لو كانت حال النساء أيام شبابي، كما هي اليوم، لما تزوجت.» فما المساكنة سوى زنًى تحميه القوانين والأنظمة.

سيدي القاضي، لم يكن عبثًا أن تَعتبرَ الكنيسةُ الزواجَ سرًّا إلهيًّا مقدسًا. وما يحصل اليوم، خارج إطار الزواج، من العلاقات غير الطبيعية، والتي استبدلت تسميتُها، تلطيفًا، في الإعلام وغيره، من الشذوذ الجنسي، إلى المثلية، كاستبدالهم الزنى بالمساكنة، أمورٌ كان على الحكومات، أن

تبحث عن أسبابها ومسبّبي تفشّيها، وأن تجد لها دواء يحمي النشء والمجتمع منها، لا أن تحمل رايتها، بحجة تلك الحرية الزائفة. فهي أوبئة فتّاكة لا دور لها سوى تدمير المجتمعات بتدمير العائلة وروابطها. وإن كانوا كثيرًا ما يصفون الشذوذ الجنسيّ، بأنه مرضٌ، فلماذا تقاعسوا أيضًا عن إيجاد العلاج المناسب له؟ ثمَّ، ألم يقرأ أو يسمع أيٌّ منهم، أن اللواط والسحاق، هما أيضًا، من أهمّ عوامل عدوى مرض الإيدز؟

سيدي القاضي، إذا كان ربُّنا قد حرّم الزنى، فالسبب هو كي لا يحصل ما حصل معنا أنا وتوماس. فما ذنبنا نحن؟ لقد خسرتُ ولدًا وزوجًا وأخًا وأمّا وأبًا، وخسرت نفسي وحياتي برمّتها، بفعل تلك المرأة، لعنها الله، لعنها الله. فما عسانا نفعل؟؟؟ هل من يجيبنا؟

وراحت تصيح وتكرر: «لعنها الله»، إلى أن انفجرت بالبكاء والعويل، فأمسك بها والدها، وضمها إليه، وأخرجها من القاعة. من دون أن تكفَّ عن ترداد، لعن إمها. ثم لحق بهما توماس. ومع ازدياد عويلها، بدأت تحاول تمزيق ثيابها، فأسرع توماس وأحضر سيارته، ونقلاها إلى أقرب مستشفى.

وعلى الرّغم مما بذله الأطباء النفسيون من الجهد، ولأشهرٍ عديدة، فلم ينفع معها أيُّ علاجٍ، فتقرر نقلها إلى مصحةٍ تُعنى بمثل هذه الحالات.

لقد فقدت إلينا، «أجملُ نساء العالم»، عقلها لتُمضيَ باقي سنوات عمرها بين المجانين. يأتيها ديمتري كلّ يوم، بعد فراغه من عمله، وقد حولته المصيبة من رجلٍ مملوءٍ بالحيويّة إلى شخصٍ محطّم القوى، فيمضي معها ساعة أو ساعتين، بينما تكون هي في عالمٍ آخر.

أمّا توماس، فلا أحد يعلم عنه شيئًا. إذ قد غادر المدينة بعدما تأكد له جنون إلينا، وانقطعت أخباره عن الجميع.

وعاد أبوه وزوجته إلى منزلهما، ولكنّه بعد مدّةٍ وجيزة أُصيب بنوبة قلبية أودت بحياته.

/YaraMElsebaai

«وينتصر الحب»

كان لافتًا ومعبّرًا أن يختار المؤلف الصديق «أبو شقرا»، هذا العنوان ليمنحه لمجموعة حكاياته الاجتماعية الأخلاقية الهادفة، وكأنّه أراد منه أن يكون فاتحة دعوة للقارئ ليصحبه في رحلة ممتعة شائقة، كلّ ما يكتنفها من أحداث وشخصيات، عامر بالمثل والقيم، مفعم بالمحبة والتضحية، مجلّل بالمروءة والشهامة، حتى أثناء العبور في المضائق الصعبة والأنفاق المظلمة والمواقف المأزق التي فيها من الجهل والتخلّف والظلم ما يبعث على الأسى والغضب

هي رحلة فنيّة أدبية، حملتني في محطاتها إلى عالم الفرسان النبلاء، إنها حكايات انتصار الحب، جولة بعد جولة، في معاركته لصدود الحياة وأقفالها الصدئة

من حقول الكاتب الغنية في مواسم تجاربها وغلّات علاقاتها ووفرة تنقلاتها في البلاد، استقى وانتقى أبو شقرا موضوعات قصصه وأحداثها وشخصياتها، ونقل بأمانة الشاهد وبراعة المراقب وصدق الراوي، ما عايشه أو ما عُرض على ميزان حكمه، أو ما سمعه من الثقاة وأهل الرأي والمشورة، لا بهدف الإثارة والتشويق في الحدث والأزمة وتحقيق فنيّة الحكاية فحسب، إنما لغاية الحكمة والهداية والاقتداء بالمثل في مختلف العلاقات داخل الأسرة والمجتمع، وبين المحبين والأصدقاء وشركاء العمل

د. علي منير حرب